عبد الوهاب مطاوع

صديقي لا تأكل نفسك



دار الشروق

صديقي
لا تأكل نفسك

الطبعـة الأولى
١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م
الطبعة الثانية
١٤١١هـ ـ ١٩٩١م
الطبعة الثالثة
١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م
الطبعة الرابعة
١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م
الطبعة الخامسة
١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م
الطبعة السادسة
١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ مدينة نصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

عبد الوهاب مطاوع

صديقى لا تأكل نفسك

دار الشروق

الغلاف للفنان مصطفى حسين

آلام زعتر

كان صديقى فى فترة الدراسة الجامعية يحب أن يسمى نفسه « جوبتر » تشبها بإله الضوء عند الرومان .. فكان إذا ضايقنا حورنا اسمه المفضل إلى زعتر وادعينا أنه إله الشعر عند المجوس ! .

وكان صديقى يكتب الشعر والقصة القصيرة ولا يخلو من موهبة لكن موهبته الأساسية كانت فى قدرته على الحلم .. فلقد كان يحلم دائما لنفسه بمستقبل سعيد يحقق فيه ذاته ويتزوج ممن سوف يحبها وتتفق ميولها مع ميوله فيمضيان العمر معا يتبادلان الحب ويتطارحان الشعر ويهيمان فى عالم الأدب والموسيقى والمثل العليا وكل الأشياء الجميلة فى الحياة .

وكان فعلا إنسانا مثاليا ملتزما خلقيا . وينشد الجمال فى الوجوه والسلوك والعلاقات الإنسانية وكانت تجمعنى به ميول مشتركة فكنا نقرأ الأعمال الأدبية الشهيرة معا ونحلق دائما فى دنيا نجيب محفوظ فى رواياته .. ونحب أبطاله ونشفق عليهم مما يصنعه بهم الزمن . وغرقنا لسنوات فى قراءة أعمال شكسبير حتى أصبحت شخصياته تتراءى لنا فى أحلامنا وتعايشنا فى أحاديثنا ومسامراتنا .

وكان صديقى « جوبتر » رقيق الإحساس سريع التأثر وحين وقعت فى أيدينا رواية الشاعر الألمانى العظيم جوتة « آلام فرتر » قرأناها معا أكثر من مرة وذرفنا الدمع على بطلها الشاب حين انتحر يأسا من بلوغ أمله فى حبيبته شارلوت

الجميلة ، وبالغ صديق كعادته فى تأثره بها فأعاد قراءة الفصل الأخير منها عدة مرات وفى كل مرة يختنق بالدموع ، حتى خشيت عليه أن تصيبه لعنة هذه الرواية الرومانسية التى أصابت بعض الشباب الألمانى فى القرن التاسع عشر فقلدوا « فرتر » وأنهوا حياتهم بنفس طريقته ، إلى حد أفزع جوتة فكتب قصيدة شعر يقول فيها إن روح « فرتر » تنادى كل شاب قائلة له :

« كن رجلا وافهمنى ولا تتبع خطواتى »

أى افهم مأساتى واحزن لمصيرى ولكن لا تقلدنى فى الانتحار والموت لأنك تعيش فى الواقع وأنا أعيش فى الخيال ، والخيال شيء آخر . !

ثم مضت بنا الحياة وتخرجنا فى الجامعة وعملنا وبدأنا معركة إثبات الذات وصديقى محلّق كما هو فى رومانسيته ويرفض أن ينزل إلى أرض الواقع . ويزورنى من حين إلى آخر ليقرأ على قصيدة أو قصة قصيرة كتبها ثم غاب عنى فجأة عدة سنوات وجاءنى فأحسست أن شيئا فى روحه قد تغير .. فلم يقرأ على شعرا ولا قصة وحين سألته عنهما قال لى إنه ملّ الكتابة ولم يعد يكتب منذ عامين أما القراءة فمازال يقرأ من حين إلى آخر ولكن بلا حماس !.

ثم غاب سنوات أخرى وجاء يزورنى ففوجئت بأنه قد تزوج واهتممت بأن أعرف كيف تزوج إله الضوء القديم فروى لى ببساطة أنه تزوج بلا حب من فتاة غير متعلمة وليست جميلة تعرَّف على أبيها خلال تردده على الهيئة التى يعمل بها صديق لإنهاء بعض معاملاته وأنه ساعده فى ذلك فدعاه الأب لتناول الشاى فى بيته ورأى ابنته فتقدم لخطبتها ورحب الأب به ، ثم تزوج فى شقة فى نفس البيت الذى يملكه الأب وبدلا من أن يجذب زوجته إلى عالمه القديم اجتذبته هى إلى دنياها الواقعية فنسى الشعر والأدب وكل شيء .

وغاب صديق مرة أخرى ثم عاد إلى شخصا غريبا له شارب ضخم وهو من كان يكره الشوارب ويتندر عليها ويضع على عينيه نظارة مذهبة ويرتدى خاتمين ذهبيين فى يديه ، ولم أكد أسأله عن أحواله حتى تطوع هو ليروى سر مظهره الجديد فقال لى ببساطة إنه طلب من زوجته أن ترجو أباها أن يعطيها نصيبها من ثروته وهو على قيد الحياة ، لكى يدعوا له بطول العمر ولا يتعجلا وفاته ! وأن الأب أدرك بنظرة واقعية للأمور ان زوج ابنته سيحوِّل حياة ابنته إلى جحيم إن لم يحقق له مطلبه خاصة وقد أنجب منها ولدا وبنتين ، فاستسلم للأمر الواقع واشترى لابنته شهادات استثمار بمبلغ كبير وهدأت الأحوال لفترة لكن صديقى لم يتوقف عند ذلك فبعد فترة بدأ يضغط على زوجته لتنقل ملكية الشهادات إلى أبنائه لتكون تحت تصرفه فاستجابت له ، وبعد فترة من الزمن اكتشفت أنه قد باع معظمها وتاجر بلا حياء فى العملة الأجنبية ولم يتورع عن الوقوف أمام البنوك كما يفعل صبيان تجار العملة لاصطياد الزبائن فبكت طويلا ورجته ألا يعرض نفسه وأسرته للخطر وأن يتصرف فى المال كما يريد بشرط ألا يتورط فى تجارة ممنوعة وكان قد جمع ثروة لا بأس بها فاتجه تفكيره إلى أن يدخل عالم بناء العمارات ، فاشترى قطعة أرض صغيرة فى مدينة نصر وأعلن عنها فجاءه راغبو السكن بالمئات فاختار منهم من يأمن لهم وباعهم على الورق شققا ثم بدأ يبنى العمارة بأموالهم ، ورفض بجرأة غريبة أن يسلم العمارة لصهره وهو مقاول ووقف يباشر عمليات البناء بنفسه حتى انتهت خلال عامين وقع خلالها فى مشاكل عديدة مع السكان .. ودخل قسم الشرطة لأول مرة فى حياته ، وكاد يقدم إلى المدعى الاشتراكى لولا أن أنقذه صهره بتدخله وإجباره له على تسليم الشقق للسكان ! ومع ذلك فلم تخل حياته من المشاكل فلقد تصادم مع شقيق زوجته الذى اتهمه باستغلال شقيقته وأبيه وكاد الأمر يصل إلى أقسام الشرطة أكثر من مرة ، ولم يهدأ بعد فبدلا من أن يستثمر مدخراته فى عمل يجيده وقريب من اختصاصه قرر أن يعيد لعبة العمارات معرِّضا

نفسه وأسرته للمغامرة من جديد .

سمعت قصته مذهولا وأنا أتساءل بيني وبين نفسي كيف يمكن أن تتغير شخصية الإنسان من النقيض إلى النقيض إلى هذا الحد .. وبأي دوافع ؟ إن ضغوط الحياة يمكن أن تغير بعض ملامح الشخصية ويمكن أن تدفع البعض إلى تقديم بعض التنازلات عن أفكارهم وأحلامهم القديمة ، لكن أية ضغوط تعرض لها هذا المثالي القديم لكي يتحول إلى نَهِم يسعى إلى الثراء بكل وسيلة وبلا اعتبار لأي شيء .

وجدت نفسي أسأله : هل وجدت سعادتك فيما تفعله الآن ؟ فأجابني بمرارة : لم يمر عليَّ يوم سعيد منذ عشر سنوات فأنا مهموم دائما بما أريد .. وبما لا أستطيع الوصول إليه . وقتي دائما مشغول أتناول إفطاري خطفا لأخرج إلى العمل . وأسرق ساعات العمل فأغادره لقضاء أموري المختلفة وفي المساء أقابل المتعاملين معي حتى منتصف الليل ونادرا ما أتناول طعام الغداء أو العشاء مع زوجتي وأولادي . حتى يوم الأجازة الأسبوعية أخرج فيه لأجري وراء مصالحي المختلفة وأتذكر وأنا ألهث كيف كنا أيام زمان نجد الوقت الطويل لنقرأ معا رواية أو نتحدث عن الشعر والأدب .. وكيف كانت ليالينا تمضي فأتعجب من أين كان لنا كل هذا الوقت ؟ ثم قطع حديثه فجأة وأشار إلى أكوام الرسائل التي تحتل مكتبي وسألني : هل تقرأ كل هذه الرسائل ، فقلت له : أقرأ معظمها فقال : مم يشكو أصحابها ؟ .

فقلت : يشكون هموم الحياة وغدر الزمان ومشاكل العلاقات الإنسانية والوحدة وكروب الدنيا العديدة .

ففوجئت به يقول لي وكأنه شخص لا علاقة له بالصديق القديم الذي عرفته أيام زمان : وهل هذه هموم ؟ إن الهموم الحقيقية التي تستحق الكتابة عنها هي

هموم أمثالي أنا .. لقد وضعت نصف ثروتي في قطعة أرض ، والادارة الهندسية بالحي أعطتني ترخيصا ببنائها سبعة أدوار فقط في حين أن الربح الأمثل منها لا يتحقق إلا إذا ارتفعت إلى أحد عشر دورا !.. إنني أكافح معهم إلى درجة أنني عرضت عليهم الرشوة فكادوا يطردونني ويبلِّغون الشرطة عني بحجة أن مخالفة الترخيص ستعرض العمارة للانهيار ! هذه هي المشاكل الحقيقية إنني أريدك أن تنشر مشكلتي هذه في بريد الجمعة وأن تختار لها عنوانا مثيرا من عناوينك المميزة لكي يجذب أنظار الوزير المختص ويتدخل لحلها !.

كان يتحدث إلي بهذا المنطق المادي الفج وأنا شارد الذهن بعيدا عنه إلى أيام البراءة والمثاليات والرومانسية وأستعيد صورته وهو يقرأ عليَّ السطور الأخيرة من رواية « آلام فرتر » وعيناه مغرورقتان بالدموع ، وفكرت أن أقول له إنني لن أكتب قصتك لأن همومك ليست هموما إنسانية وإنما هموم تجارية وهموم الرغبة المحمومة في الثراء واعتصار الثمرة حتى آخر نقطة فيها على حساب القيم وأرواح البشر ، وأن عليك إذا أردت حلا لما تتصور أنه مشكلتك أن تشكو بالطرق التقليدية للوزارة ، أو أن تشتري مساحة إعلانية في أية صحيفة وتكتب فيها ما تريد ، أما بريد الجمعة فهو صوت من لا يستطيع أن يشتري مساحة إعلانية في صحيفة ، وصوت من يحتاج إلى المشاركة الإنسانية وليس إلى المزيد من الربح والثروة على حساب أرواح البشر . فكرت أن أقول له كل ذلك لكني تنبهت إلى أني أتحدث الآن إلى شخص جديد تقطعت الأسباب بيني وبينه إلى الأبد ولن أراه مرة أخرى ، فوجدت نفسي أقول له : ربما كتبت مشكلتك لكني إذا نشرتها فسوف أختار لها العنوان الوحيد الذي يلح على خاطري ليترجم حالتك الآن بالمقارنة بالصديق القديم الذي كنته . فتهلل وجهه فرحا وسألني : وما هو هذا العنوان ؟.

فقلت له على الفور : آلام زعتر ؟.

صباح الخير أيها الحزن

صحوت من نومي فوجدت نفسي حزينا بلا سبب سألت نفسي : هل أغضبني أحد قبل أن أنام ؟ لا .. هل فقدت عزيزا فأحزنني فقده ، لا .. هل أغضبت صديقا فندمت على ذلك ؟ لا .. هل طعنني صديق فى ظهرى فآلمتني خيانته ؟ لا .

لماذا إذن هذا الحزن الشفيف الهادئ الذى يغلِّف أحاسيسى فى هذا الوقت من الصباح ؟ ولم أجد جوابا مريحا فسلَّمت بأنها زيارة عابرة من هذا الرفيق القديم الذى يطل علىَّ من حين إلى آخر فيطيل زيارته أو يقصرها حسب الظروف ثم ينصرف إلى حال سبيله .

وقد علَّمتنى تجاربى أن أحسن استقباله وألاطفه حتى يرحل عنى بسلام .. ومن وسائلى فى ذلك ألا أسأله لماذا جاء .. ولا متى سيرحل إذ ليس من حسن الأدب أن تسأل ضيفا حتى ولو كرهته لماذا جاء يزورك .. وإنما عليك أن ترحب به وأن تكرم وفادته وأن تتجاهل السؤال عن موعد رحيله إلى أن يهمّ بالانصراف فتلحُّ عليه فى الرجاء بأن يبقى حتى موعد الغداء .. فيعتذر .. وترجو فيعتذر ثم تضطر آسفا إلى قبول اعتذاره .

هكذا جلست بين يديه أحتسى القهوة وأفكر .. ثم استأذنته بعد قليل فى سماع شىء من الموسيقى يناسب المقام .. فانسابت أنغام قطعة من الموسيقى الشرقية التى

تثير الشجن هى سماعى العريان من مقام البياتى .. وأشعلت سيجارة وقدمت له مثلها ثم غرقت فى أفكارى .. إلى أن بدا عليه أنه يهم بالقيام فألححت عليه فى الرجاء بأن يتفضل بقبول دعوتى للغداء وربما للعشاء أيضا لكنه اعتذر بأنه مرتبط بموعد هام فودعته حتى باب الشقة واعتذرت له بأن المصعد ما زال معطلا ووقفت على السلم أودعه ثم خطر لى وقد أصبح خارج مسكنى أن أتجاوز حدود اللياقة قليلا معه وأسأله عن سر زياراته المتكررة لى فى الفترة الأخيرة خاصة فى الصباح فاستند إلى « الدرابزين » وقال لى بكبرياء : إننى لا أزور أحدا بغير دعوة .. فقلت : وهل دعوتك ؟ قال نعم ! . قلت : كيف وأنا لم اتصل بك ولا أعرف لك عنوانا ؟ فقال : دعوتنى فى كل مرة زرتك فيها بغير اتصال حين تتجمع داخلك سحب الاكتئاب وتضيق ببعض ماتراه فلا تنفِّس عن نفسك بإعلان ضيقك وحين تكتم مشاعرك لكيلا تغضب الآخرين وحين تمضى نهارك وليلك بين الأوراق والمشاكل لا ترفع رأسك إلا لتتحدث فى عمل .. ولا ترى من الشوارع إلا الطريق من بيتك إلى عملك وبالعكس ، ومن الدنيا إلا أصحاب المشاكل والمهمومين ، وحين تلهث دائما وصدرك مشغول بأمر ينبغى أن يتم وأمر لم ينجز بعد وغاية لم تتحقق وحين تكون فى حالة لوم مستمرة لنفسك تحسُّ معها أنك كنت تستطيع أن تفعل كذا لكنك لم تفعل أو فعلت ولكن ليس بالمستوى الذى تتمناه وحين تحس بأنك عاجز فى كثير من الأحوال وتتمنى لو كانت لديك قدرات خارقة تحل بها المشاكل وتلبى بها كل الرغبات ، وهكذا تتجمع السحب ببطء داخلك فأجد فى بيتى بطاقة موقعة منك بالحبر السرى تقول لى فيها « تفضل بزيارتى » فألبى نداءك رغم كثرة مشاغلى وارتباطاتى ! .

دهشت مما قال وقلت مدافعا عن نفسى : لكنى لست كما تصوَّرنى فأنا إنسان متفائل بطبعى وأدعو للتفاؤل وللكفاح فى الحياة وأومن بأن حياة الإنسان من

صنعه .. وأن الحياة إرادة ولا أعلّق أبدا فشلى على الحظ كما يفعل البعض ، لكنى لا أنكر دوره فى الحياة ، فأنا أومن بالحظ وبالقدر والنصيب وأومن أيضا أنها ليست كل شيء وأن الجانب الأكبر من نجاح الإنسان أو فشله يتحمله الإنسان وحده .. لهذا فإنى أحس دائما بأنه لاحد لقدرة الإنسان لو صحّ عزمه . وأطرب كثيرا لحديث الرسول الكريم «لو تعلقت همة أحدكم بالثريا لنالها» وأومن بأن على الإنسان أن يؤدى واجبه ويرضى ضميره ثم يترك الأمر بعد ذلك لله عز شأنه يصرّفه كيف يشاء ، لأن المهم هو ألا يقصر الإنسان فى حق نفسه أما المستقبل فبيد الله وحده كما أنى أيضا من المؤمنين بأن الإنسان يستطيع أن يبدأ من جديد فى أية مرحلة من العمر .. وأن يصنع من الفشل بداية جديدة للنجاح وأن يطور من نفسه دائما واروى لمن يسألنى من الشباب أن محمد على مؤسس مصر الحديثة بدأ يتعلم العربية وهو فى الخامسة والأربعين من عمره وأن النابغة الذبيانى قال الشعر لأول مرة فى حياته وهو فوق الستين ، وأن الفيلسوف الألمانى شوبنهاور فاجأته الشهرة وهو يقترب من السبعين ، وأن الفيلسوف أفلوطين الذى ولد فى أسيوط وعاش فى روما لم يبدأ الكتابة إلا فى سن الثامنة والأربعين بعد أن أكمل دراسته واكتملت له فلسفته التى عرفت بعد ذلك بالأفلاطونية الحديثة .

وأقول دائما لزوارى من الشباب ولنفسى قبلهم إن الدنيا دائما تأخذ وتعطى ، وأن العقبات لا تحول دون النجاح ، وكثيرا ما تكون الدافع القوى له وأن المهم دائما هو أن نشترك فى مباراة الحياة بكل طاقتنا لكى نكون من الفائزين لأنك لن تفوز فى أى مباراة إلا إذا كنت من اللاعبين أما الانسحاب قبل أن يبدأ اللعب فلا يحقق سوى الحسرة ، أقول ذلك وأومن به وانظر إلى الحياة دائما بقلب يخفق بالأمل .. فلماذا تفرض علىّ صداقتك وتزورنى بلا دعوة ؟ . فسحب يده من يدى وقال لى مؤكدًا للمرة الأخيرة : لقد دعوتنى فلبيت الدعوة .. وليست هكذا

أصول الضيافة ! ثم تهيأ للانصراف غاضبًا فأثار ضيقى أنه ما زال مصرًّا على أنى دعوته وعدت مسرعًا إلى الشقة لأبحث عن «قلة» أكسرها وراءه فلم أجد فأخرجت زجاجة مياه مثلجة وعدت سريعًا إلى السلم لأرمى بها عليه ورفعتها فسرت برودتها فى يدى وذكّرتنى بعطشى وقلت لنفسى فجأة «خسارة فيه» ثم شربت حتى ارتويت وعدت مبتهجًا إلى شقتى !.

أناشيد الأمل

كعادته خلال الفترة الأخيرة دخل مكتبي مهموما وجلس صامتا مهموما يشرب القهوة ويفكر . احترمت صمته فلم أشأ أن أقطع تأملاته الحزينة لكنى لم أستطع أن أمنع نفسى من أن أتعجب للمفارقة الغريبة بين صورته الضاحكة اللاهية التى يعرفها الناس عنه وبين طبيعته التى تميل للحزن والانطواء والتى أعرفها عنه . إنه نجم ضاحك موهوب يشيع البهجة والسرور بمجرد ظهوره على المسرح أو فى الشاشة ويتوقع الناس منه دائما أن يسعدهم ويخفف آلامهم لكنى أراه منذ عرفته من سنوات طويلة مهموما دائما بمشاكله . وتكلم أخيرا فقال لى : إننى عائد الآن من عيادة الطبيب فلان .. لقد أكدت التحاليل والفحوص شكوكه حول مرضى ، وواجهنى بالأمر فخرجت من عيادته والدنيا مظلمة أمامى وفكرت أن أمر بك . وصدمنى النبأ لكنى قلت له مهوّنا عليه الأمر : لايخلو إنسان من مرض . ومرضك فى النهاية مأمول الشفاء وعلاجك منه يتوقف إلى حد كبير على التزامك بتعليمات الطبيب وعلى قوة إرادتك ، ثم هو فى النهاية إرادة الله التى لا تملك ولا يملك لها أحد دفعا .

فسكت قليلا ثم قال : إنى لست حزينا لذلك فالصحة والعمر بيد الله وحده لكنى أتساءل فقط لماذا تحاصرنى الهموم الآن .. والآن فقط بعد أن تصورت أن رحلة الشقاء قد انتهت وأننى سوف أجنى ثمرة كفاحى ومعاناتى خلال السنوات

الماضية . لقد شقيت كثيرا وتعبت كثيرا وواجهت الحياة وحدى بلا سند ولا معين منذ حصلت على الثانوية العامة ، وكنت أسير أحيانا على قدمى من السيدة زينب إلى معهد الفنون المسرحية بالهرم لأنى لا أجد ثمن تذكرة الأتوبيس ، وكثيرا ما عجزت عن شراء كتاب من كتب الدراسة بالمعهد فاقترضته من زميل لى ثم نسخته بيدى كاملا لأذاكر منه ، وبين هذا وذاك كنت أتردد على المسارح أبحث عن دور صغير لقاء قروش . وعملت فى الظل سنوات دون أن يحس بى أحد حتى تخرجت .. وبدأت أشق طريقى .. وتحملت الآلام الكثيرة .. والاضطهاد من بعض زملاء الفن لكى أجد ثغرة وسطهم أطل منها على الجمهور ثم بدأت أعرف النجاح .. وبدأ الناس يعرفوننى والمخرجون يبتسمون فى وجهى بعد أن كانوا يحدثوننى من أطراف أنوفهم ، وتضاعف أجرى فى المسرح والسينما والتليفزيون عشرات المرات ، وعرفت النقود الوفيرة لأول مرة فى حياتى فانتقلت من الغرفة التى أسكن فيها إلى شقة صغيرة ثم إلى شقة فاخرة فى حى راق واشتريت سيارة ثم أخرى أغلى وأكبر وبدأ الكبار يتوددون إلى ويسعون إلى صداقتى ، وبدأت أحس أن أيام الشقاء قد انتهت وأن أيام السعادة قد جاءت فماذا حدث ؟.

قلت له : أعرف ما حدث .. وهو من طبيعة الحياة التى لا تخلو من مشاكل .

فقال مواصلا حديثه : قد يكون كذلك .. لكنه لم يحدث كثيرا بهذه الطريقة إلا معى .. فقد تعرضت لحادث تصادم كاد يقضى على حياتى ورقدت أسابيع أعانى آلاما لا تحتمل ثم فقدت خلال رحلة الكفاح حبى الوحيد لأن فتاتى ضاقت بانشغالى بمعركة الحياة ولم تستطع الصبر على قليلا حين بدأت أعرف النجاح لكى أؤمن مستقبلى ومستقبلها وضاقت بالانتظار وفضلت الاستقرار العائلى على انتظارى أكثر من ذلك ثم فقدت صوتى فجأة وعشت أسابيع أخرى مهددا بخطر فقده إلى الأبد وهو رأس مالى الوحيد . وصحوت من نومى مرارا مفزوعا أتخيل

نفسي وقد فقدته نهائيا ففقدت سلاحي فى الحياة ، وأخيرا شفيت وهدأت مخاوفى فبدأت أحس بانهيار غريب فى صحتى .. وأغمى على أكثر من مرة فى الاستديو ، وفوق خشبة المسرح وذهبت إلى الطبيب فشك فى حالتى وطلب منى فحوصا عديدة وبدأت رحلة الآلام والخوف والرجاء وذهبت إليه اليوم بآخر هذه التحاليل فألقى على بهذه المفأجاة .. إننى راض بقضاء الله وقدره لكنى أتساءل فقط لماذا الآن فقط ، بعد أن بدأت استريح واستعد لجنى ثمار كفاحى .. هل هى ضريبة النجاح كما يقولون ؟ ووجدت نفسى أقول له لا محل للسؤال يا صديقى ولا مكان له ، فليس من حقنا أن نسأل عن الأسباب فالله هو الذى يسأل الناس عما يفعلون ولا يسأل هو جل شأنه عما فعل . قدر الله وكما شاء فعل .. وعلينا دائما أن نتقبل ما تأتى إلينا به المقادير وأن نتجاوز السؤال « لماذا » إلى السؤال ماذا نستطيع أن نفعل لكى نتغلب على آلامنا ومشاكلنا .. ولعلك يا صديقى أسعد حالا من غيرك ، فالدنيا فيما يبدو كالمصلحة الحكومية التى تشترط لكى تلبى لك طلبك أن تقدم إليها ورقة تمغة كضريبة مستحقة عما تعطيه لك ، وأنت قد طلبت منها الكثير وأعطتك الكثير فأعطتك النجاح والثراء والشهرة وحب الآخرين ، ومن حقنا أن نسعد بما حققنا فى حياتنا منتاح وليس من حقنا أن نعترض على التمغة الحكومية التى تستأديها منا الدنيا أحيانا مقابل ما حققنا لأنفسنا .. لكننا نرجو دائما أن تكون ضرائبنا هيِّنة محتملة وبعض التعساء يدفعون أحيانا بغير أن يأخذوا شيئا فلنرض إذن بما أخذنا وبما دفعنا ولنلتمس دائما السلوى والعزاء فى الأشياء الأخرى التى أجزلت لنا الدنيا فيها العطاء .. لأننا لن نحصل دائما على كل شىء .. وإنما سيبقى هناك دائما مانحلم به ومانلهث وراءه وما نحققه وما نخسره .. فاحمل أقدارك فوق كتفيك ياصديقى وامض فى الحياة صابرا .. آملا أبدا فى رحمة الله التى تسع كل شىء .

فلست وحدك فى همومك ولا الدنيا تستهدفك أنت بالذات بهذه الضريبة .. وإنما هكذا هى الحياة لوحة لا تتم وأنشودة لا تكتمل .. وسيمفونية مبهجة أحيانا .. وشجيَّة أحيانا .. وناقصة غالبا .. لكن الأمل فى الله وفى رحمته لاينقطع أبدا .

صديقي لا تأكل نفسك

منذ سنوات كنت أتلقى دورة دراسية عن الصحافة فى انجلترا ، وذات صباح كنت أجلس إلى مكتبى فى قاعة المحاضرات .. أستمع إلى المحاضر وأدوِّن ملاحظاتى .. فطلب أن يكتب كل منا مقالا قصيرا عن رحلة قام بها الدارسون فى اليوم السابق .. ونزل عن منصته يتجول بين المكاتب ـ ويقرأ السطور الأولى من كل مقال .. حتى جاء إلى مكتبى فمددت له يدى بما كتبت كما فعل الزملاء .. ففوجئت به ينحِّى يدى جانبا وينحنى على ليقول لى : سأقرأ ما كتبت فيما بعد .. لكنى جئت لأسألك : ماذا يأكلك ؟.

وللحظة لم أفهم السؤال .. لكنى سرعان ما خمنت أنه يسألنى عما يشغل بالى وتأكد ظنى حين واصل حديثه قائلا : إنى ألاحظ أنك مكتئب منذ يومين فماذا بك .. هل تفتقد بلدك وأسرتك ؟ .

وأسرعت أشكره لسؤاله وأطمئنه .. لكنى وجدت نفسى أتأمل هذا التعبير الغريب .. وأتعجب له .

ماذا يأكلك ؟ يا له تعبير عجيب ! لقد سمعته بعد ذلك مرات عديدة .. واستخدمته أحيانا خلال إقامتى هناك .. كتعبير مجازى عما يفعله القلق والاكتئاب والهموم بالإنسان ، لكنى لم أفهم معناه الحقيقى إلا فيما بعد حين قرأت عما يفعله القلق بالإنسان .. فإذا به « يأكله » فعلا لا مجازا ، وإذا بهذا التعبير الشائع عند

الانجليز تصوير دقيق لما جاء فى كتب علم النفس الجسمى أو علم النفسجسمى .. الذى يعرفه المتخصصون عن تأثير القلق على جسم الإنسان .

فالقلق يسبب توتر الأعصاب وحدة المزاج ، وتوتر الأعصاب يحول العصارات الهاضمة فى المعدة إلى عصارات سامة تنهش جدرانها فتصيبها بالقرحة .. وهكذا يأكل القلق جدار معدة الإنسان أولا .. ثم قد يتوحش بعد ذلك فيلتهم أو يتلف العديد من أعضائه الأخرى ، فبعض أنواع مرض السكر وبعض أمراض القلب وبعض أمراض المخ تنتمى كلها إلى جدٍ واحد هو قلق الإنسان واكتئابه وخوفه من المجهول .

وكل إنسان يخاف غالبا من شىء ما .. من المرض أو الفشل أو فقد الأحباء أو العوز أو فقد المكانة أو انعدام الدور أو الموت ، ولا بأس بأن نخاف من أى شىء .. لكن المهم هو كيف نحتفظ بالخوف الإنسانى فى حدوده الطبيعية .. وألا نسمح له بأن يسلمنا إلى غول الاكتئاب .

لقد قال وليم جيمس مؤسس علم النفس التطبيقى ذات مرة : إن الله يغفر لنا أخطاءنا .. لكن جهازنا العصبى لا يغفرها لنا أبدا ، وهذا صحيح إلى حد كبير ! .

وأكبر أخطائنا فى حق أنفسنا هو القلق والاستسلام للاكتئاب والشعور بالاحباط وكثيرا ما نتعرض لهذه الأعراض إذا بدا لنا فجأة كأن الطريق قد أصبح مسدودا أمامنا وأن المشكلة التى نواجهها جبل شاهق لن نستطيع أن نتسلقه لكى نهبط إلى طريق الأمان من الناحية الأخرى .. مع أن أكثر من شقوا طريقهم بنجاح فى الحياة قد اصطدموا بمثل هذه العقبات أو بأعتى منها .. فتخطاها البعض .. وتحوَّل البعض الآخر عنها إلى طريق آخر فى الحياة لم يلبث أن حقق فيه أكثر مما كان يحلم به لو سار فى طريقه الأول .. أما من جلسوا على الأرض يستشعرون العجز .. ويشكون سوء الحظ .. ويتحسرون على ما كانوا سيحققونه لو

لم تصادفهم هذه العقبة . فلقد خسروا طموحهم .. وأعصابهم وصحتهم وقدرتهم على الاستمتاع بالحياة .

إن كتَّاب التراجم الشهيرة يفتشون فى حياة المشاهير دائما على نقطة التحول التى كانت بداية انطلاقهم إلى المجد ، فيكتشفون فى أحيان كثيرة أنها كانت عقبة كئودا أو فشلا ذريعا .. أو اخفاقا فى تحقيق هدف ، حوَّل مجرى حياتهم إلى الطريق الذى لمعت فيه عبقرياتهم .

فبعض النقاد مثلا يعتقدون أنه لو لم يصب طه حسين بالعمى فى صباه .. لما كان طه حسين الذى لا تكاد تخلو جامعة أجنبية فى العالم الآن من رسالة دكتوراه عنه . وأنه لوتوافرت لعباس محمود العقاد الظروف المادية اللازمة لمواصلة تعليمه فى المدارس بعد الابتدائية لكان أقصى ما وصل إليه من مجد فى حياته هو وظيفة مدير فى مصلحة حكومية ويعتقد بعض نقاد الغرب أنه لو لم يُصب بيتهوفن بالصمم لما ألف سيمفونياته الخالدة وأنه لو لم يتجرع ديستوفيسكى وتولوستوى وشارلز ديكنز، التعاسة فى حياتهم الخاصة لماكتبوا روائعهم الخالدة ، والأمثلة كثيرة على العقبات التى اعترضت طريق المشاهير فحولوها إلى بداية لحياة جديدة ونجاح أكبر .

فلماذا نقف مكتوفى الأيدى أمام أول مشكلة تصادفنا .. أو أول عقبة تعترض طريقنا .. فنحزن على ما فاتنا ونتحسر على ما ضاع منا كأننا ننتقم من أنفسنا بالحزن والاكتئاب .

إن الحياة لا تتوقف أبدا .. ومياه النهر لا تكف عن الجريان .

وأحد فلاسفة الإغريق كان يقول إن كل شىء فى الحياة يتغير إلا قانون التغير نفسه ! فلماذا نتصور أن الحياة سوف تخالف هذا القانون فيما يخصنا نحن فقط فتبقى الأبواب دائما مسدودة .. والأحلام بعيدة .

إن الحياة جديرة بأن نحياها .. والأحلام جديرة بأن نكافح من أجلها والثقة

فى الله وفى النفس تشد أزرنا .. وتشحذ إرادتنا .. لكى نتطلع إلى نصيبنا العادل من السعادة والنجاح .

فإذا كان الأمر كذلك فلماذا « تأكل » نفسك يا صديقى ؟! .

أشواك الآخرين

أنت حائر دائما .. هل تقترب من الآخرين أم تبتعد عنهم ؟! هل تثق بهم أم تصدق ظنونك فيهم .. ؟ هل تبوح لهم بأسرارك أم تكتمها عنهم .. هل تعيش فى قلب الدائرة معهم .. أم تنعزل على حافتها كما يعيش الغجر فى أطراف المدن والقرى .. منعزلين عنها ومنفردين بأنفسهم ؟.

وأنا معك فى كل هذه التساؤلات أبحث عن إجابات مريحة لها وحائر معها مثلك .

فمنذ قديم الزمان والإنسان حائر فى علاقاته بالآخرين يحتاج إليهم ويشكو منهم يشقى إذا ابتعد عنهم ويبكى إذا اقترب منهم لا يستطيع أن يعيش وحيدا كحيوان اللؤلؤ فى قلب محارته .. ولا يستطيع أن يلتصق بالآخرين فى كل لحظة من عمره وإن فعل كانت شكواه منهم كشكواه من الوحدة سواء بسواء .. فلا هو ارتاح فى القرب منهم ولا هو وجد راحته فى البعد عنهم .. لأن حالنا مع الآخرين كحال المتنبى مع الملوك الذين اقترب منهم طلبا للسلطان فقال عنهم :

صحبت ملوك الأرض مغتبطا بهم   وفارقتهم ملآن من ضيق صدرا !

وهذا هو حالنا دائما نحن البشر مع الجميع ! وذات يوم سألنى شاب هذه الأسئلة الحائرة .. فتذكرت فجأة قصة قديمة رواها أحد الأدباء عن مجموعة من « القنافد » اشتد بها البرد ذات ليلة من ليالى الشتاء فاقتربت من بعضها وتلاصقت

طلبا للدفء والأمان ، فآذتها أشواكها فأسرعت تبتعد عن بعضها ففقدت الدفء والحرارة والأمان فعادت للاقتراب من جديد بشكل يحقق لها الدفء والأمان ويحميها فى نفس الوقت من أشواك الآخرين ، ويحمى الآخرين من أشواكها .. فاقتربت ولم تقترب .. وابتعدت ولم تبتعد .. وهكذا حلت مشكلتها ، وهكذا أيضا ينبغى أن يفعل الإنسان !.

فالاقتراب الشديد من الجميع قد يغرس أشواكهم فينا ويغرس أشواكنا فيهم .. والبعد عنهم أيضا يفقدنا الأمان والدفء ويجعل الحياة قاسية ومريرة لهذا فنحن فى حاجة دائما إلى أن نتلامس مع الآخرين .. ولكن بغير التصاق شديد يفتح أبواب المتاعب . ويحجب الرؤية ويشوّش السمع . لأن القرب الشديد يضيّق مدى الرؤية فى حين أن الاقتراب عن بعد أو الابتعاد عن قرب يجعل الرؤية أوضح والسمع أصفى .. فأنت إذا ألصقت شفتيك بالميكروفون وتحدثت فيه خرج صوتك مشوشا غير مفهوم .. وإذا أبعدته قليلا عن فمك خرج صوتك واضحا .. أما إذا أبعدته كثيرا .. جاء صوتك كالفحيح لا يميزه أحد ، فالإنسان فى حاجة إلى رفقاء يبثهم شجونه ويهتم بأمرهم ويهتمون بأمره ، لكنه يحتاج أيضا إلى أن تكون له ذاته الخاصة التى لا يقترب منها إلا الأصفياء وحدهم والإنسان يحتاج أيضا إلى أن يحسن الظن بالآخرين لكى تستقيم الحياة لكنه يحتاج أيضا إلى أن يكون حريصا بعض الشىء فى علاقاته بهم ، فلا يمنح ثقته الكاملة إلا لمن عرفه جيدا وامتحن إخلاصه وصداقته وقيمه الأخلاقية ، لأن الاسراف فى الشك خطأ يكشف عن سوء طوية الإنسان وفقا لقول الشاعر : « إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه » ، كما أن الإسراف أيضا فى الثقة بالجميع وعن غير خبرة بهم يورد الإنسان موارد التهلكة ودليل على الغفلة وفقا للحكمة العربية القديمة « الشك من حسن الفطن » .. ومن هنا جاءت فكرة « الوسط الذهبى » عند فلاسفة

اليونان أى فكرة الاعتدال فى كل شىء .. فى القرب من الناس وفى الابتعاد عنهم ، فى الثقة فيهم وفى سوء الظن بهم وأيضا فى كل أمور الحياة ، وهى نفس الفكرة التى تعبر عنها الحكمة المعروفة « خير الأمور الوسط » ، فالعقلاء من البشر هم الذين يحيون الحياة باعتدال فى كل شىء .. وشذاذها هم من يقفون دائما على حافة الدائرة من كل أمر ومن كل شأن .. ومن كل قضية .

وأنت قد تشكو مثلا ممن تأتمنه على أسرارك .. فيبوح لسانه بها ولو بعد حين لكنك تعفى نفسك من اللوم لأنك كنت أول من أفشى سرك هذا حين بحت به لمن ائتمنته عليه ! والسر إذا عرفه اثنان لم يعد سرا كما يقولون ، ولا لوم على الآخرين إذا ضاقت صدورهم به فقد ضاق صدرك أنت أولا به لهذا فليس من حقك أن تغضب ممن أفشى سرك وأن تعتبرها خيانة عظمى .. وأن تفقد صديقا لهذا السبب وحده .. وأن تبتعد عن الآخرين بسبب ذلك .. فالأمر قد لا يكون خيانة وإنما مجرد عجز بشرى عن حفظ الأسرار .. لأنه ليس كل الناس قادرين على الكتمان ، والدليل هو أنت شخصيا الذى يسألك الشاعر ومعه الحق :

تبوح بسرك ضيقا به .. وتبغى لسرك من يكتم ؟

وأنت ترى أن من حقك أن تنتقد الآخرين وأن تذكر معايبهم لكنك تتألم كثيرا إذا مارسوا معك نفس الهواية فآذوك بألسنتهم وذكروا معايبك ، .. وأنت قد لا تستطيع دائما أن تكف ألسنة الآخرين عنك لكنك تستطيع على الأقل أن تتجنب الكثير منها إذا التزمت فى حياتك الشخصية بالتعفف عن ذكر عيوب الآخرين وعوراتهم وإذا صنت عينك عن عيوب الآخرين كما يطالبك الإمام الشافعى وقلت معه دائما : « يا عين للناس أعين » !. أى لهم أعين ترى يا عين عيوبى فلا ترى عيوبهم لكيلا يروا عيوبى .. وهذه وتلك بعض مشاكلنا مع الآخرين وبعض مشاكل الآخرين معنا .. ومع كل ذلك فالحياة جديرة دائما بأن

نحياها .. ونحن الذين نستطيع أن نجعل منها رحلة هادئة مأمونة من الخوف والألم والعذاب .

وكل رحلة تحتاج إلى رفاق سفر نستعين بهم على وحشة الطريق ونلتمس لديهم الدفء والأنس والصحبة .. وعلينا أن نفعل ذلك دائما ولكن بشرط أن نتعلم الحكمة من القنافذ فى اقترابها من الآخرين .

ولكنها تدور

فى كتابه « رسائل إلى ابنتى أنديرا » .. روى الزعيم الهندى نهرو ، نقلا عن حكيم صينى زار الهند منذ ألف وثلاثمائة سنة ، أنه شاهد فيها رجلا يطوف بالقرى مرتديا حزاما من النحاس فوق بطنه وواضعا فوق رأسه مشعلا مضيئا ، فإذا سئل عن سبب تجوله بهذه الهيئة الغريبة قال : إن عقلى عظيم إلى درجة أخشى معها أن تنفجر بطنى من المعرفة إذا لم أرتد هذا الحزام ، أما المشعل فإنى أضعه فوق رأسى لأبدد به ظلام الجهل !.

ومنذ اكتشفت هذه الشخصية العجيبة وصورتها تقفز إلى خاطرى فى مواقف ومناسبات عديدة فى حياتى ، فكثيرا ما ألتقى بأشخاص يعتقدون أن بطونهم سوف تنفجر من فرط المعرفة .. أو من عظمة شأنهم التى لا يعترف بها أحد لأنهم مغبونون وغير مقدرين فى أوساطهم الجاهلة !.

وكثيرا ما غالبت نفسى لكى أمنعها من الضحك إذا قفزت هذه الصورة فجأة إلى خيالى وأنا مشتبك فى مناقشة حامية مع واحد من هؤلاء ثم كثيرا أيضا ما ذكرتنى هذه الصورة بنقائضها من المثقفين الحقيقيين والفلاسفة والعلماء الذين عرفوا الكثير وظلوا إلى آخر أيام حياتهم ظمأى إلى المعرفة يتساءلون عن معانى الأشياء .. ويشكُّون فى صحة ما عرفوا ويطلبون اليقين بلا جدوى .

فأتذكر مثلا سقراط العظيم الذى يقول : أعرف شيئا واحدا هو أننى لا أعرف شيئا !.

أو أتذكر الفيلسوف الشاك أرسليوس الذى كان يقول : لست أدرى ولست أدرى أننى لا أدرى !.

أو أتذكر الإمام أبا حنيفة النعمان الذى سئل مرة : هذا الذى تفتى به أهو الحق الذى لا شك فيه فقال متحيرا ، والله لا أدرى .. لعله الباطل الذى لاشك فيه !.

أو أتذكر الإمام الشافعى الذى سئل مرة عن مسألة فى الفقه فسكت فقيل له ألا تجيب رحمك الله؟ فقال والله لا أجيب حتى أعرف هل الفضل فى سكوتى أم فى جوابى !.

والحق أنى لا أكره شيئا قدر كراهيتى لأمثال هذا الرجل الهندى فى كل مكان وزمان . فالمغرورون دائما هم أعداء أى تقدم وأى جديد تأتى به البشرية ، لسبب بسيط هو أنهم يعتقدون أن ما يعرفونه هم وحدهم هو اليقين وأن ما يأتى به الآخرون هو دائما الباطل ، ويرفضون دائما أن يخضعوا هذا الجديد للامتحان العقلى فإذا ثبتت صحته قبلوا به وإذا ثبت بطلانه رفضوه .

والغرور دائما ياصديقى قرين التحجر ورفض الجديد . وأصحاب العقول المتفتحة العطشى دائما للمعرفة هم الذين يعرضون الأفكار الجديدة التى يسمعونها على عقولهم .. ويقبلونها .. ويتبينون فيها جوانب الصحة وجوانب الخطأ ثم يقبلون منها ماتقبله عقولهم ويرفضون ماترفضه . أما الرفض مع سبق الإصرار والترصد .. وقبل المناقشة والتفكير فهو دائما طبيعة الحمقى والمغرورين الذين عطلوا تقدم البشرية على مر العصور !.

فأمثال هذا الرجل الهندى هم الذين كذَّبوا جميع الأنبياء بلا استثناء حين

جاءوهم بالهداية وهم الذين كذبوا العلماء والمكتشفين ووضعوا فى طريقهم العراقيل وهم على سبيل المثال الذين كذبوا العالم الإيطالى جاليليو حين قال إن الشمس هى مركز الكون وأن الأرض والكواكب الأخرى هى التى تدور حولها وليس العكس كما كانوا يعتقدون ، وبدلا من أن يخضعوا نظرياته للبحث والتجربة حاكموه وأدانوه وقضوا عليه بألا يغادر بيته وأن يقضى فيه ما بقى من حياته لا يزور ولا يزار بل وبأن يعلن على الناس أن ما جاء به ليس صحيحا وأن الأرض لا تدور حول الشمس فامتثل لما أمر به لكن المؤرخين قالوا إنه حين سمع الحكم أحنى رأسه ونظر إلى الأرض ثم قال هامسا وبإصرار ... ولكنها تدور !

وأمثال هؤلاء أيضا هم الذين كذبوا الرحالة الإيطالى ماركو بولو حين عاد من رحلته إلى الصين وروى للناس عن هذه البلاد العجيبة التى عاش فيها ٢٦ سنة ، فلم يصدقه أحد لأنهم كانوا يعتقدون بيقين أنه لا حياة وراء بحار الجنوب ، فألف كتابا عن رحلته استغرق تأليفه سنة كاملة فلم يقرأه أحد ولم يصدقوا حرفا مما جاء فيه ، وحين أدركته الوفاة طلب منه رجل الدين أن ينقذ روحه من العذاب فى الدار الآخرة ، بأن يتبرأ من أكاذيب هذا الكتاب ، فأجابه هامسا : لكنى لم أذكر فيه سوى نصف الحقيقة يا سيدى !.

وهكذا فى كل العصور كان هناك دائما من يعتقدون أن ما يعرفونه هم وحدهم هو اليقين الذى لاشك فيه وأن ما يعرفه غيرهم هو الباطل الذى لاشك فيه ، والذى لا يستحق حتى سماعه أو مناقشته !.

ونحن مطالبون دائما يا صديقى بأن نسمع أولا لكل رأى يعرض علينا وأن نناقشه ونمتحن أدلته فإذا ثبتت لنا صحته أو معقوليته قبلنا به وإذا ثبت لنا العكس رفضناه .

أما أن نرفض كل شىء قبل أن نعرفه ونناقشه اعتقادا منا بأنه ليس لدى الآخرين ما يمكن أن يضيف إلى معارفنا الجديد أو أن لدينا نحن فقط اليقين الأكيد فهذا هو الطريق الذى سار فيه كل المتحجرين من أعداء الفكر الحر فى كل العصور فإذا وجدت نفسك ذات مرة ترفض السماع للآخرين وتتشبث برأى لم تمتحن صحته من قبل وتدافع عنه بقوة العاطفة والانفعال وحدها لا بقوة العقل .. فأنزل يدك قليلا إلى حزامك وتحسسه بأصابعك لترى أمن جلد هو أم نحاس فقد يذكرك ذلك فجأة بتلك الهيئة المضحكة التى يبدو فيها من يعتقدون خطأ أنهم وحدهم الذين يعرفون دائما ما لا يعرفه الآخرون !.

فى المرآة

سامحه الله أوسكار وايلد !.

فمنذ أن قرأت له روايته الشهيرة « صورة دوريان جراى » منذ أكثر من عشرين سنة .. فتح أبواب الجحيم أمامى ، وعلّمنى هواية التفرس فى وجوه الآخرين لاستجلاء حقيقتها .. وأفسد علىّ بعض معاييرى فأصبحت أرى الأسود أبيض والأبيض أسود والجميل قبيحا ، والقبيح جميلا !.

فى هذه الرواية اللعينة روى أوسكار وايلد قصة لورد شاب ثرى وسيم برىء الملامح ، سعى يوما إلى فنان ، ليرسم له صورة فرسمه الفنان كما رأته عيناه : وجها بريئا جميلا وملامح طفولية ، وعلق دوريان جراى اللوحة فى قصره ، وعاش حياته ولم يكن بريئا كما يبدو فى ملامح وجهه ، ولا نبيلا كما يوحى مظهره ، وإنما كان وغدا أنانيا شريرا ، لا ترده قيود ، ولا تحكمه قيم فخدع فتاة أخلصت له وتخلى عنها فانتحرت ، ومضى فى الدنيا يجرى وراء أهوائه ولا يقيم وزنا لأخلاق ولا قيم ولا صداقة ، وكلما ارتكب جريمة جديدة أو آذى انسانا آخر نظر إلى وجهه فى المرآة فرأى نفسه فيها شابا بريئا وسيما كما كان ، وحين التقى به شقيق فتاته التى حطم حياتها منذ عشرين سنة لينتقم منه لشقيقته ويقتله أنقذه من الموت نفس هذا الوجه البرىء ، فقد توسل له دوريان جراى ـ كاذبا ـ أن يدقق النظر فى وجهه ليرى هل من الممكن أن

يكون هو نفسه من حطم حياة شقيقته منذ عشرين سنة ودقق الشقيق النظر فرأى وجه شاب برىء الملامح ، أصغر من أن يكون هو الوغد الذى يطارده فأخلى سبيله ، ومضى يبحث عن المجرم الحقيقى ! ونجا دوريان جراى من الموت ، لكنه لم ينج من عذاب الضمير ، فقد اكتشف منذ فترة أن جرائمه وشروره لا تترك آثارها على صفحة وجهه ، لكنها للدهشة تنطبع تدريجيا على ملامح الصورة الزيتية المعلقة فى الصالون ! فكلما ارتكب إثما جديدا فقد وجهه فى الصورة بعض براءته ، وكلما آذى إنسانا أضيفت إلى ملامح وجهه تجاعيد ودوائر سوداء جديدة ، وعندما اقترف أكبر شروره نظر إلى الصورة فوجد وجهه فيها قد اكتسب ملامح شيطانية كاملة تصور حقيقته التى يخفيها وجهه البرىء ، فخشى أن تفضح الصورة أمره ، ونقلها من الصالون إلى البدروم وأخفاها عن الأنظار !.

والفكرة خيالية بالطبع ، لكنها صادقة إلى حد كبير ، فلقد أراد أوسكار وايلد أن يقول إن لكل إنسان صورتين : إحداهما حقيقية هى التى يعرفها عن نفسه ، وتعكس سريرته بآثامها أو أفضالها ، وأخرى مزيفة هى التى يظهر بها أمام الآخرين .

ومنذ قرأت هذه الرواية ، وأنا أتأمل الوجوه ، وأحاول دائما أن أبحث فيها عن الصورة الحقيقية لأصحابها ، وأحكم على الآخرين بأخلاقهم لا بأشكالهم ، وبأفعالهم الخيِّرة أو الشريرة لا بمظهرهم ولا ملامحهم ، فأرى القبح والجمال بمقاييس مختلفة تماما ، فأرى مثلا فى شخص ناصع البياض أنه زنجى ، لأنه زنجى القلب لا يكف عن ايذاء الآخرين ، ويحقد على الجميع ويتمنى لو صحا يوما من نومه فرأى الأرض قد خسفت بكل الناس ، حتى لا يبقى فوق ظهر الكرة غيره . وأرى فى إنسان محروم من الوسامة أنه أجمل

من «نارسيس»[1] لأنه كريم الخلق جميل الروح مفعم القلب بحب الآخرين لا يؤذى أحدا ، ويسعى بكل ما يستطيع لإسعاد غيره وهكذا . ورغم أنى تعرفت على هذه الفكرة لأول مرة فى رواية أوسكار وايلد ، فقد عثرت على شيء شبيه بها فيما قرأته من أوراق الصوفية فيما بعد فلقد قرأت لأحد كبارهم أنه كان يقول وهو من هو فى صفاء روحه وطهارته :

إنى لأنظر فى المرآة كل يوم مخافة أن يكون قد اسود وجهى !.

أى مخافة أن يكون قد حمل حقدا أو كراهية لأحد ، فتنطبع آثارهما على صفحة وجهه !.

فماذا يستطيع إذن أن يقول من يتنفسون الكراهية ويطربون لإيذاء الآخرين ، ويسعون بكل جهد للإضرار بغيرهم حتى ولو لم يسيئوا إليهم ؟ وماذا يستطيع أن يقول من لا يحفظون عهدا ولا يقيمون وزنا لدين ولا خلق ولا قيم فى حياتهم .

وكم صورة كصورة دوريان جراى يحتاجون إليها لكى تنطبع عليها آثار الشر والكراهية والحقد الذى يعشش فى ظلام قلوبهم ؟ وبأى ملامح شيطانية كريهة سوف تظهر صورتهم الحقيقية بغض النظر عما تحمله وجوههم من ملامح وقسمات ؟.

لقد كان إمام الصوفية الغارق فى بحار الحب ينظر فى المرآة كل يوم ، فانظر أنت أيضا يا صديق فيها . وحاول أن تحتفظ بشبابك ووسامتك الحقيقية فيها ، وَجَمِّلْ وجهك بحب الآخرين ، والكف عن الأذى ، وبإسعاد غيرك

---

(١) فتى اغريقى روت الأساطير اليونانية إنه كان باهر الجمال ويمضى نهاره يتأمل جمال وجهه فى صفحة الماء . وإليه تنسب النرجسية أو عشق الذات .

بقدر ما تستطيع ، فلكل منا مرآة سوف تنطبع عليها صورته الحقيقية ذات يوم فتفضح سريرته الخفية ، ولكل منا يوم سوف يُعرض فيه على ملك الملوك . فتبيض وجوه وتسود وجوه ، ويجيء بعضنا بوجوه شائهة كريهة ، ويجيء البعض الآخر بوجوه نبيلة كريمة ، ولا علاقة لهذه الوجوه الحقيقية بما حملنا طوال حياتنا من ملامح جسدية ، لأنها حصاد رحلتنا فى الحياة من الخير والشر ، ومن الجمال والقبح .. فإلى اللقاء هناك !.

من فضلك ساعدنى

قال لى صديق والسأم يقتله : هل تعرف ما هو الجحيم ؟ .

قلت له : لا ؟.

قال : هو أن تعاشر من لا تحبهم .. وتصادق من لا تستريح إليهم وتعمل بين من لا يفهمونك .. وتشعر كل يوم بأنك عاجز عن تحقيق ما تريده لنفسك .. وما تؤمن به وتعتقده !.

قلت : وكيف يستطيع الإنسان أن يحتمل حياة من هذا النوع ؟.

قال : العجيب أن كثيرين منا يعيشون حياة شبيهة بهذه الحياة فى مجملها أو فى بعض صورها .. ويحتملونها كأنه قدر مكتوب عليهم أو كأنهم ينفذون حكما قضائيا صادرا ضدهم من محكمة الحياة .. ولا يفكرون أبدا فى استئناف هذا الحكم وفى تغيير حياتهم والبحث عن حلول ملائمة لما يشكون منه .

قلت : وماذا تتوقع منهم أن يفعلوا ؟.

قال : أن يكفوا عن الشكوى مما يضيقون به .. وأن يستثمروا الطاقة التى يبددونها فى الأنين فى البحث عن حلول لما يعانون منه من مشكلات . إن الشباب فى الخارج لا يهدر عمره فى الشكوى والتبرم بالحياة .. وإنما يتحركون لتغيير الواقع الخاص الذى يضيقون به .. فمن لا يجد سعادته فى حياته الخاصة يبحث عنها فى حياة جديدة .. ومن لا يجد نفسه بين أصدقائه يبحث عنها بين

أصدقاء آخرين أكثر فهما له ، ومن لا يجد نفسه فى عمله يبحث عنها فى عمل جديد فإن عجز عن إيجاده حاول أن يتواءم مع عمله وأن يحبه وأن يكتشف فيه جوانب جديدة يمكن أن تحقق طموحه وذاته ، بل إن من يجد الطريق أمامه مسدودا فى مكان ما من الأرض لا يهدر عمره فيه وإنما يغادره غير نادم إلى مكان آخر وحياة أخرى .. حتى أصبحت هذه العبارة الغريبة على أسماعنا «حياة جديدة» عبارة شائعة على ألسنة الشباب والكهول بل والشيوخ أيضا .. فمن لا ترضيه حياته يقول لنفسه وللآخرين دائما سأبدأ حياة جديدة ثم يتحرك بالفعل ليبدأ هذه الحياة وليس ذلك مقصورا أبدا على الشباب .. فحتى بعد سن المعاش يقول الإنسان لنفسه سأبدأ حياة جديدة أتمتع فيها بما لم تتح لى سنوات الكفاح والعمل اكتشافه والتمتع به .. وهكذا يعيش الإنسان حياته أكثر من مرة .. ويستمتع بكل مرحلة من مراحلها .

قلت : أما نحن ؟.

قال : نحن مشدودون دائما إلى واقعنا الذى نشكو منه بحبال رفيعة من الصلب المتين .

نشكو من حياتنا ولا نحاول أبدا أن نتواءم معها أو أن نغيرها إذا يئسنا منها .

ونشكو من أصدقائنا ثم نذهب إليهم لنجتر معهم السأم والملل ويعيش كل منا فى وحدته الداخلية وهو بين أصدقائه ! ونشكو من عملنا ولا نحاول أبدا أن نتكيف معه أو نكتشف فيه ما يستهوينا ويطلق إبداعنا .. أو نغيره ونبحث عن مستقبلنا وأنفسنا فى مجالات جديدة .

إنها رحلة عذاب نكرر فيها كل يوم أسطورة سيزيف الذى غضبت عليه آلهة الاغريق فحكمت عليه أن يحمل فوق صدره صخرة كبيرة ويصعد بها إلى

قة الجبل .. وكلما وصل إلى القمة ألقت الآلهة الصخرة إلى السفح ليحملها من جديد إلى القمة .. وطوال العمر !.

إن كلا منا يحمل مثل هذه الصخرة فوق صدره .. ولا يفكر أبدا فى إلقائها بعيدا عنه .. فمتى يلقى كل منا بصخرته عن صدره .. ومتى يأتى هذا اليوم ؟.

تفكرت فى كلامه طويلا .. وبحثت عن إجابة تهدئ خواطره .. فوجدت نفسى أجيبه : سيأتى هذا اليوم بالتأكيد ياصديقى .. وعلينا ألا نفقد الأمل فيه أبدا .. وإلا استحالت الحياة ، إن الإنسان هو أعظم أعجوبة فى العالم كما قال ذلك منذ قرون الشاعر الاغريقى الأعمى سوفوكليس ، وإرادته هى التى تصنع الحياة .. وهو قادر دائما على تحقيق المعجزات حين يريد وحين يتحرر من الجمود وحين يخرج من دائرة الشكوى والأنين إلى دائرة الحركة والعمل .

لقد انهزم الديناصور فى معركة التطور.. فانقرض واندثر فى حين انتصر الإنسان على الطبيعة فبقى وتواصل .. مع أن عضلات الإنسان ليست أقوى من عضلات الديناصور .. لكن عقله .. وروحه وإرادته هى الأقوى لهذا عاش الإنسان .. ومات الديناصور . وسوف يعيش الإنسان دائما ..-وسوف يتغلب على كل الصعاب التى تواجهه . إننى لست من أنصار مذهب الفيلسوف الألمانى شوبنهاور الذى كان يقول إن الإنسان أصلا مخلوق معذب وأن الحياة ليست سوى تعاقب الألم والفراغ وتعاقب الرغبة والسأم ، وإنما أنا من المعجبين كثيرا بكلمة الفيلسوف الفرنسى رينوفيه الذى عاش حياة خصبة طويلة وملأ المجلدات بأفكاره وآرائه ثم قال وهو فى الثامنة والثمانين من عمره « سأترك الدنيا قبل أن أقول كلمتى النهائية .. لأن الإنسان يموت دائما قبل أن يتم عمله .. وهذا أشد أحزان الحياة إثارة للشجن !.

هذه هى « النظرة » التى أومن بها فى الحياة .. والتى أعجب بها . إن على كل إنسان أن يقول «كلمته» حتى اللحظة الأخيرة . وألا يفقد حماسه أبدا لتحقيق ما يريده لنفسه وما يؤمن به من آراء وأفكار وليس ضروريا أن يحقق النجاح الذى يصبو إليه .. لكنه من الضرورى جدا أن يسعى .. وأن يقول لنفسه إذا عجز عن تحقيق آماله : لقد حاولت . إن الخطأ ليس أن نعيش حياة لا نرضاها لكن الخطأ هو ألا نحاول تغييرها إلى الأفضل دائما .. فإذا قصرت الإمكانات عن الأمانى .. فزنا على الأقل بشرف المحاولة الذى يدفعنا للرضا .. لأننا لم نقصر فى حق الحياة ولا فى حق أنفسنا .

إننى لا أشك أبدا يا صديقى فى أن هذا اليوم الذى تحلم به سوف يأتى .. وسوف يتحقق ..

لكن إلى أن يأتى .. من فضلك ساعدنى على حمل هذه الصخرة الثقيلة !.

أحلام الشباب

لم أعد أذكر اسم هذا الفيلم ، لكنى لم أنس أبدا قصته ، ولا السؤال الذى جاء على لسان أحد أبطاله فى آخر مشاهده .

أما الفيلم فلقد كان يحكى قصة شاب يرى فى نفسه موهبة التمثيل المسرحى ، وحقق نجاحا محدودا فى فرق الهواة ببلدته الصغيرة حيث يعمل موظفا بأحد المتاجر ، ويعيش حياة سعيدة مع زوجته الشابة التى تزوجها بعد حب عنيف فيقرر فى لحظة تحديد للمصير أن يترك البلدة الصغيرة وعمله المتواضع ، ويرحل إلى العاصمة ليبحث عن مستقبله فى عالم المسرح ، وفى المدينة الكبيرة يحاول الشاب أن يجد فرصته فيجد الطريق صعبا والآمال ليست سهلة المنال ، فيضطر تحت ضغط الحاجة إلى العمل مساعدا للجارسون فى أحد المطاعم ، ويدرس فنون المسرح فى أحد المعاهد الصغيرة ، ويعجز مرتبه الضئيل عن الوفاء بمتطلبات حياته ونفقات الدراسة ، فيعيش مع زوجته حياة جافة متقشفة ويمضيان شهورا طويلة بلا أية متعة سوى متعة الحلم بتحقيق الآمال ، وتحاصرهما المشاكل والديون ، وتعجز زوجته عن احتمال قسوة الحياة فتنهار ، وتطلب منه أن يعودا إلى البلدة الصغيرة ، ويرفض الشاب أن يتنازل عن أحلامه ويستحلفها باسم الحب والأحلام المشتركة ألا تتراجع فى منتصف الطريق وتهجره ، ويأتى موعد ذهابه إلى المطعم فيغادرها

حزينا ، ويؤدى عمله مهموما ومشغولا بزوجته التى ضعفت مقاومتها أمام صعوبات الطريق ، فيستأذن مديره فى العودة للبيت مبكرا ليكون إلى جوار زوجته ، وفى الطريق إلى البيت يشترى بقروشه القليلة ثلاث وردات ليهديها إليها لعلها تنعش رومانسيتها القديمة لكنه يجد الغرفة المفروشة التى يقيمان فيها خالية وعلى الفراش رسالة من زوجته تقول فيها إنها لم تعد تحتمل هذه الحياة الصعبة فعادت إلى بلدتها ، ويمسك الشاب بالرسالة ويحس بالقهر والعجز والهوان فينفجر باكيا لكنه لا يفكر فى اللحاق بزوجته ويكتب لها طالبا منها العودة ويبشرها بقرب تحقيق آماله فى الحياة فتجيبه برسالة قصيرة طالبة منه الطلاق ، ويستجيب الشاب مضطرا إلى رغبتها ويطلقها ويتمسك بطموحه . وتعابثه الآمال فيؤدى دورا صغيرا فى مسرحية ثم تتوقف الفرقة عن العمل فيعود إلى المطعم ... وتمضى خمس سنوات من العمر بين الفشل والنجاح بغير أن يضع أقدامه على بداية حقيقية للطريق .

وذات مساء وقف يتحدث مع زميل له بالمطعم عن الاختبار الذى أداه صباح ذلك اليوم أمام مخرج مسرحى شهير حين لمح رجلا وسيدة يجلسان إلى مائدة فى الركن الذى يتولى الخدمة فيه ، فتهيأ للذهاب إليهما ثم توقف فجأة وأحس بالعرق الغزير يملأ وجهه . لقد كانت زوجته السابقة التى انهزم حبها له أمام صعوبة الحياة ولابد أن الرجل هو زوجها الجديد ، ووجد نفسه يتأمله إنه رجل فى الخامسة والأربعين أصلع الرأس هادئ يوحى وقاره ومظهره بأنه رجل عملى واقعى لا يعرف الأحلام ، ولا يعذب زوجته بطموحه إلى حياة يحقق فيها ذاته ونفسه وأدرك زميله أزمته فعرض عليه أن يتولى خدمتهما نيابة عنه ، ورحب بذلك ، لكنه غير رأيه فجأة فأمسك بذراع زميله قبل أن يتجه إليهما ، ثم وضع الفوطة على ذراعه وتقدم هو من المائدة بثبات وقال لهما :

مساء الخير يا سيدتى . مساء الخير يا سيدى .. ماذا تطلبان ؟.

والتقت عيناه بعينى زوجته فاهتزت قليلا ، ثم حيته مبتسمة وقدمته لزوجها وقدمت زوجها له ، وأحس الزوج بحرج الموقف ، فانسحب إلى الحمام ليتيح لهما فرصة الحديث لدقائق .. وسألته الزوجة السابقة عن أحواله ، فقال لها إنه ما زال يكافح لتحقيق آماله لكنه سعيد بما اختاره لنفسه ، وقالت له إنها أيضا سعيدة بحياتها الهادئة مع زوجها الجديد وتمنى كلا منهما السعادة للآخر ... وعاد الزوج وتناولا العشاء وغادرا المطعم تاركين له بقشيشا كبيرا لم يجد حرجا فى قبوله ، وبعد انصرافهما وجد صدره يجيش بالانفعال فخلع جاكيت العمل واعتذر عن عدم مواصلته . وذهب إلى المسرح ليعرف نتيجة الاختبار الذى أجراه فى الصباح ، ففوجئ بالمخرج يبلغه باختياره لأداء دور هام فى المسرحية الجديدة ، فيقرر التفرغ للمسرح نهائيا حتى ولو عانى الجوع والتشرد . وتتعاقد معه الفرقة على العمل فيها لمدة عام بمرتب أقل مما كان يتقاضاه من المطعم ، لكنه يرحب به ويتحمس لأداء دوره .

وينتهى العقد فتجدد الفرقة التعاقد معه بمرتب أكبر قليلا لمدة عامين ينهى خلالهما دراسته بالمعهد . ويشتهر بين زملائه بالالتزام والجدية .

ثم تجيء إليه فرصة العمر حين يؤدى دور البطولة لأول مرة بعد سنوات طويلة من الكفاح والمعاناة . فيحقق نجاحا كبيرا وتنشر الصحف صورته ويكتب عنه ناقد : إنه مثّل دور الزوج الذى هجرته زوجته لعجزه عن توفير الحياة الكريمة لها بمرارة مؤلمة اجتذبت الدموع من العيون . ويعرف أخيرا طعم النجاح ، وتضمه إليها كبرى فرق العاصمة بعقد دائم ومرتب كبير وينتقل من الغرفة الصغيرة المفروشة التى شهدت سعادته وآلامه إلى شقة واسعة فاخرة .

ويكتشف فجأة أنه قد بلغ الأربعين من عمره . حين يرى الشعيرات

البيضاء تغطى جوانب شعره ، وأنه أمضى ١٤ عاما طويلة من العناء والكفاح منذ هجرته زوجته حتى وقف تحت أضواء المسرح .

ويسر بخواطره لزميل له بالمسرح عاش تجربة كفاح مماثلة ، وهما يقفان خلف الكواليس يستعدان لدخول خشبة المسرح بعد قليل فيسأله زميله فجأة : ها قد حققنا أحلامنا وأصبحنا نجمين يشار إليهما بالبنان ، فهل يستحق ما حققناه كل ما تكبدناه من أجله ؟.

وفاجأه السؤال ، فاهتز من أعماقه ووجد نفسه يسترجع شريط حياته واستغرق فى تأملاته حتى أفاق على يد زميله تهزه ليستعد لدخول خشبة المسرح فينتفض ثم يقول له بإصرار كأنه يتحدى نفسه : نعم يستحق كل ما قدمناه من أجله ، نعم يستحق بكل تأكيد ثم خطا إلى خشبة المسرح بخطوات نشيطة ، فقوبل بعاصفة من التصفيق دمعت لها عيناه ، وأخرجته من تأملاته الحزينة فانحنى يرد تحية الجمهور ، ثم نهض والتفت إلى زميله الواقف فى الكواليس ينتظر لحظة دخوله بعد دقائق ، كأنه يقول له بغير كلام : نعم يا صديقى .. نعم يستحق كل ذلك وأكثر ... وإلا لكانت معاناتنا بلا معنى وعذابنا بلا طائل وكفاحنا بلا قيمة .

وتمر السنوات وتسقط من ذاكرتى أشياء كثيرة ، لكن قصة هذا الفيلم وسؤاله الأخير وجوابه المعبر لا تسقط من الذاكرة أبدا ، وكثيرا ما أتذكرها حين يبثنى صديق همومه ، أو حين يسألنى شاب النصيحة ، وهو فى بداية الطريق ، فأجد نفسى أكاد أروى له قصة هذا الفيلم لأطالبه بعدها بأن يتمسك بأهدافه ، وأن يوطّن نفسه على احتمال عثرات الطريق ، وأن يؤمن دائما بأن تحقيق الآمال يحتاج إلى الصبر ، وإلى أن نؤمن فى أعماقنا بأن ما نسعى إليه يستحق ما نتكبده من أجله ، وبأن ما حققناه من خطوات ولو

محدودة على الطريق يستحق أيضا ما بذلناه للوصول إليه ، وما سوف نقدمه فى المستقبل بإذن الله من أجل استكمال تحقيق الأحلام والآمال بشرط أن نظل دائما قادرين على الحلم وعلى التمسك به ..

احترس من الحوت

أوقف أى إنسان عابر فى الطريق واسأله عن مشاكله .. وسوف ينتحى بك جانبا ثم يسمعك قائمة من المتاعب .

فإذا قلت له لكنك تحيا رغم ذلك .. سيقول لك نعم أحيا ولكن !.

وهكذا الإنسان فى كل مكان من العالم !.

فليس هناك إنسان بلا مشاكل وليست هناك حياة خالية من المتاعب والآلام .. لكن السؤال الهام هو كيف نواجه همومنا ومشاكلنا .. أو كيف نتعايش معها ؟.

لقد كان من تقاليد البحارة فى الزمن القديم إذا صادفوا حوتا ضخما فى البحر أن يلقوا إليه بقارب فارغ ليشغلوه به عن مهاجمة السفينة حتى لا تغرق ثم يحاولون صيد الحوت وهو منشغل بمناطحة القارب الفارغ .

وهذا بالضبط ما ينصحك به علماء النفس فى العصر الحديث أن تلقى لحوت همومك قاربا فارغا يشغلها عنك ويشغلك عنها إلى أن تنجح فى اصطيادها والقضاء على أسبابها .

وأقصر طريق إلى ذلك فى رأى عالم النفس « بول كوستا » هو الثقة بالنفس ونسيان التجارب الأليمة ، والمشاركة فى النشاطات الاجتماعية . فهذه

المشاركة بالذات هي ما يشغلك عن الهموم وما يشغلها عنك .

ومن دعاء فيلسوف اغريقي قديم أنه كان يقول : « يارب امنحني القدرة على تحمل ما لا طاقة لى على تغييره . والشجاعة لتغيير ما ينبغي تغييره . والحكمة للتفريق بينهما . » .

فالوقوف أمام التجارب الأليمة واجترارها لا عائد له إلا اهدار العمر فيما لا يفيد الإنسان .. ولا يغير من الأمر شيئا .

والاكتفاء بالشكوى لا يحل مشكلة .. ولا يساعد الإنسان على التقدم خطوة واحدة للإمام .

وفى كل الأحوال فعلينا ألا نسمح لهمومنا ومتاعبنا بأن تستولى علينا وأن تحرمنا من حقنا العادل فى الحياة والسعادة .

فما نستطيع تغييره علينا أن نبذل الجهد والطاقة لتغييره وما لا نملك تغييره الآن على الأقل فلنلق إليه بالقارب الفارغ ونتسلح بالرضا وبالصبر والعمل إلى أن نجد ثغره نتمكن من خلالها من اصطياده .. والقضاء عليه .

والحياة ياصديقى انتصارات وهزائم .. ومكاسب وخسائر .. والعاقل هو من لا يسمح لهزائمه الصغيرة بأن تجلل حياته بالسواد وتمتص قدرته على المقاومة .

وفى مسرحية عطيل لشكسبير يقول الدوق : إن الرجل الذى يسرقه لص فيبتسم ترفعا . يسترد من السارق بعض غنيمته أما من يحزن بلا طائل فإنه يسرق نفسه مرة أخرى بعد أن سرقها اللص لأنه يضيف إلى خسارته المادية خسارة معنوية جديدة لا تقدر بثمن !.

أنت تشكو مثلا من قلة الأصدقاء .. لا بأس اصنع كما كان الفيلسوف الفرنسى ديكارت يصنع فى شبابه . فقد كان يقرأ الأدب القديم ويقول إنه يقوم كل يوم بأسفار ذهنية إلى الماضى ليحدث أنبل الناس فى أعظم العصور ! وأن له معهم صداقات عميقة تعوض قلة أصدقائه أو انشغالهم عنه .

فلماذا لا تقوم أنت أيضا بأسفار ذهنية تصادق خلالها أنبل الناس فى كل العصور ؟.

أنت مهموم بحياتك ومشاكلك ؟ اذن لماذا لا تصنع كما صنع الآخرون الذين ارتفعوا فوق آلامهم ولم يسمحوا لمشاكلهم بأن تستغرقهم وأن تشل قدراتهم ؟.

لقد كان الأديب اليابانى جيبنشا إيكو ساخرا عظيما .. وفقيرا أعظم ! فسخر من فقره ومن نفسه ومن كل شىء فى الحياة ولم يتوقف يوما عن الكتابة كان يعيش فى بيت بلا أثاث فعلق على جدران منزله صورا للأثاث الذى كان يود أن يشتريه لو كان معه ثمنه وكان يقدم لتلاميذه فى المناسبات صورا للهدايا التى كان سيشتريها لهم لو كان معه نقود !.

وحين اقترب منه الموت أعطى لتلاميذه بمنتهى الوقار والجدية لفافات **أوصاهم ألا يفتحوها ، وأن يضعوها فوق جثمانه قبل احراقه ، وحين اشتعلت النار فى الحطب الذى وضع فوقه الجثمان .. وتلاميذه ينوحون ويبكون انطلقت من اللفائف صواريخ ملونة تفرقع وتطقطق فى مرح فلم يتمالك التلاميذ أنفسهم من الضحك من سخرية الأستاذ الذى امتدت سخريته إلى كل شىء حتى إلى الموت !.**

وفى ختام رواية « السمان والخريف » سأل بطل الرواية عيسى الدباغ **الشاب الذى التقى به مصادفة بعد ١٥ عاما ، ماذا تفعل الآن ؟ فأجابه : أعابث المتاعب وتعابثنى .. وامضى إلى الإمام بوجه مبتسم .. بوجه مبتسم دائما !.**

وأنت أيضا تستطيع أن تعابث المتاعب .. إلى أن تحقق لنفسك ما تتمناه لها فما يبدو مستحيلا الآن .. سيكون ممكنا غدا وما يبدو صعبا الآن سيكون سهلا بعد حين والمهم هو ألا نتنازل أبدا عن أهدافنا وألا نتوقف أبدا عن الحركة والعمل فى اتجاه هذه الأهداف وألا نسمح أبدا لحيتان الهموم والمتاعب بأن تصيدنا قبل أن ننجح نحن فى اصطيادها !.

صديقى .. من أنت

فى فيلم أمريكى قديم ، كان المجتمع الذى يصوره الفيلم يطارد الكتب ويحرقها ، لأنه يخشى المثقفين وما تتضمنه هذه الكتب من مبادئ وأفكار وقيم عن الحرية ، لذلك زود كل بيت بشاشة تليفزيونية كبيرة لا تعرض إلا مواد التسلية ، وأغلق المكتبات وأحرق الكتب .. فهل اندثر الفكر ، واندثر المثقفون ؟.

بالطبع لا لأن المثقفين تداولوا الكتب العالمية سرا وفروا بأنفسهم إلى الغابة ، يحفظون أمهات الكتب بحيث إذا ضبطها حارقو الثقافة ودمروها .. لم تضع هذه الكتب إلى الأبد لأنها تحولت إلى كائنات بشرية حية يحفظها عقل الإنسان ويرويها لغيره ، وأصبح كل واحد منهم يسمى نفسه باسم الكتاب الذى حفظه فهذا اسمه « الحرب والسلام » لأنه يحفظ رواية تولستوى الشهيرة ويستطيع أن يقرأها على غيره ، وهذا اسمه « البؤساء » لأنه يحفظ رواية فيكتور هوجو وهذا اسمه « آلام فيرتر » لأنه يحفظ قصة الشاعر الألمانى العظيم جوته وهكذا .

ورغم انبهارى بفكرة هذا الفيلم ـ التى تقول إن الفكر لا يموت مهما حاول البعض قتله ـ فقد وجدت فى سيرة الإمام أبى حامد الغزالى قصة تتشابه دراميا مع فكرة هذا الفيلم الشهير « ٤٥١ فهرنهيت » فلقد روى الغزالى فى كتابه

إحياء علوم الدين أنه هاجر إلى بلدة اسمها جرجان ، ليتلقى العلم فيها عن شيخ اسمه أبو نصر الإسماعيلي ، وبعد سنوات امضاها فى الدرس جمع كل ما تعلمه عنه فى عدة كتب ، وضعها فى مخلاة وحملها مع أمتعته ، وركب مع قافلة راحلة إلى بلدته ، وقبل أن يصل إلى غايته ، هاجم القافلة قطاع الطريق ، واستولوا على حاجيات المسافرين وانصرفوا فخرج وراءهم الغزالى مرتاعا فالتفت إليه زعيمهم وحذره فقال له : اسألك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد على تعليقتى « مخلاتى » فقط فما هى بشيء تنتفعون به فسأله : ما بها ؟ فقال : كتب هاجرت من بلدتى لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك شيخ اللصوص وقال له : كيف تدعى أنك عرفت علمها ، وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟! ثم أمر بردها إليه .

ويحكى الغزالى فى كتابه أنه قال لنفسه ــ حين سمع جواب شيخ اللصوص ــ هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدنى فى أمرى فلما وافيت بلدتى ، أقبلت على الاشتغال بكتبى ثلاث سنوات حتى حفظت جميع ما فيها فصرت بحيث لو قطع على الطريق لا اتجرد من علمى !.

أى أن الغزالى قد أصبح بذلك أقوى من قطاع الطرق ، وكذلك يستطيع كل إنسان أن يكون ، إذا استوعب دروس الحياة وتجاربها وثمرات عقول مفكريها وأدبائها وعلمائها واستفاد بها بحيث لا يستطيع أحد أن يسلبه قدرته على التفكير وارادته الحرة . فالمعرفة سلاح يستعين به الإنسان على فهم الحياة ومواجهتها وخوض تجاربها ، وحماية حريته وحقه فى التفكير والتعبير واختيار الطريق الذى يمضى فيه ، وما من معرفة نستوعبها ، أو تجربة إنسانية نمر بها أو نعايشها عن قرب فى حياة الآخرين إلا وتضف إلى قدرتنا على ممارسة « علم » الحياة الذى قال عنه البيركامى إنه أصعب العلوم والفنون الكثير .. والكثير ..

لذا قال الشاعر تنيسون على لسان البطل الأسطورى يوليسيز .. أنا جزء من كل ماصادفنى !.

وصدق تنيسون فيما قال !.

فلقد أثبت علم النفس الحديث فيما بعد أن كل تجربة نمر بها تحدث فينا تغيرا معينا يختلف من تجربة إلى أخرى حسب عمقها وأهميتها ، وكل كتاب نقرؤه أيضا يحدث فينا مثل هذا التغيير مع اختلاف درجاته ، لذلك يختلف الناس باختلاف تجاربهم وثقافاتهم فحتى لو بدأ كل الناس حياتهم فى الطفولة بطريقة واحدة فإنهم سرعان ما يختلفون فيما بعد عن بعضهم البعض بسبب اختلاف التجارب التى تمر بهم واختلاف الثقافات التى يستوعبونها واختلاف أنصبتهم من العلم والمعرفة والثقافة .

فقل لى عن التجارب التى مرت بك والتى عايشتها مع أصدقائك ، وعن الكتب التى قرأتها والمعرفة التى استوعبتها أقل لك : من أنت الآن ، لأنك جزء من كل ذلك ، ولأنك اليوم لست أنت الأمس .

وإنما أنت دائما شخص جديد أقوى من القيود وأكثر فهما للحياة وخبرة بها عنك بالأمس ، فمن أنت الآن يا صديق ومن ستكون غدا ؟.

يا أصدقائى

لا أعرف ماذا فعل أصدقاء أرسطو به حتى قال كلمته المشهورة التى طالما أزعجتنى كلما تذكرتها وهى : يا أصدقائى .. ليس هناك أصدقاء !.

ولست من مؤيدى الشاعر الذى خانه بعض أصدقائه فانتقم من كل الأصدقاء بهذين البيتين من الشعر :

احـــذر عـــدوك مـــرة   واحذر صديقك ألف مرة
فـلربما انـقـلب الصديق   فـكـان أعـرف بـالمضرة

لأن الحياة لا تستقيم لو عاش الإنسان حياته بلا أصدقاء وبلا مشاركة يتوجس شرا من الآخرين .. ويخص أصدقاءه بهواجسه بحجة أنهم أعرف بالمضرة !.

ولأنى أيضا من المؤمنين بأن للصداقة قيمة هامة فى الحياة تصبح بغيرها نوعا من الجحيم .

وكثيرا ما يسألنى الشباب فى رسائلهم إلى بريد الجمعة هل هناك حقا صداقة ؟، وهل هناك أصدقاء ؟، فأجيبهم دائما : نعم ، هناك صداقة وهناك أصدقاء ، لكن المهم هو أن تعرف كيف تختار أصدقاءك .. وكيف تستمع بصداقتهم بلا خسائر نفسية لك أو لهم ، وهى موجودة فى الحياة منذ الأزل

وستبقى إلى نهاية الكون وأشهر أصدقاء الزمن القديم هم الحواريون الذين التفوا حول السيد المسيح ونقلوا إلى الدنيا من بعده تعاليمه .. وانتشروا فى الكرة الأرضية يبشرون بما جاء به نبيهم وصديقهم . ومن أشهر أصدقاء الزمن القديم أيضا صحابة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذين نصروه وآمنوا بدعوته وأصبحوا من بعده حجة فى أمور الدين يستفتيهم الناس .. وتطلب الأمصار من الخلفاء ارسال بعضهم إليهم ليعلموهم أمور دينهم ودنياهم .

وأشهر صديق فى الإسلام هو أبو بكر الصديق ، وقد سمى بالصديق ـ بتشديد الدال ـ لأنه صدَّق صديقه وآمن بدعوته منذ فاتحه فيما كلف به لأول مرة .

وعلى مر التاريخ دائما كانت هناك صداقة وأصدقاء .. ولعبت الصداقة أدوارا هامة فى تاريخ البشرية ، فلولا صداقة أفلاطون لأستاذه سقراط لما وصل إلى العالم شىء من فكر سقراط الذى لم يدوِّن أفكاره ولم يكتب حرفا وإنما دونها أفلاطون فى محاوراته فحفظها للتاريخ ، وسيبقى دائما هناك أصدقاء وهناك صداقة رغم خذلان بعض الأصدقاء لأصدقائهم .. ورغم صيحة يوليوس قيصر الشهيرة وهو ينظر إلى صديقه بروتوس ويتعجب كيف انضم للمتآمرين عليه وكيف طعنه بخنجره فى ظهره كالآخرين ، فلقد أساء بروتوس إلى نفسه بغدره بصديقه أكثر مما أساء إلى صديقه أو إلى قيمة الصداقة ، واقترن اسمه فى سجل التاريخ بالغدر أكثر مما اقترن بأى شىء آخر .

لكن المهم هو أن تعرف كيف تختار أصدقاءك . لأن صديقك هو مرآة نفسك غالبا وفى الحديث الشريف « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » أى أنك غالبا سوف تكون مثل خليلك فى قيمه وأهدافه ونظرته للحياة .. فانظر أولا من تخالل وهل تتوافق أهدافكما وقيمكما أم لا قبل أن تمنحه

شرف صداقتك .. ولكيلا تشكو ذات يوم من انعدام التوافق بينكما .. فليس من الجائز مثلا أن يصادق المستقيم مستهترا والجاد عابثا والمتدين منحرفا .. لأن الصداقة فى مثل هذه الحالة لن تصبح صداقة يطمئن بها جانبك .. وتجد فيها السكينة والاطمئنان ، وإنما سوف تصبح غالبا صراعا بين شخصيتين متناقضتين وأسلوبين متعارضين فى الحياة .

لذلك يندر أن تجد ـ مثلا ـ إنسانا جاداً بين مجموعة من الأصدقاء المستهترين أو كريما بين بخلاء أو مثاليا بين ماديين .. وإنما سوف تجده فى الغالب واحدا من أقرانه ، لأن المرء يعرف بأقرانه ، ولأن الطيور على أشكالها تقع .. كما يقولون .

والعلاقات الإنسانية بصفة عامة هى علاقات أخذ وعطاء .. فلا تستمر صداقة تقوم على عطاء من طرف لطرف بغير أن يكون الطرف الآخر قادرا على العطاء لرفيقه .. فالصداقة المثالية والناجحة هى طريق ذو اتجاهين ذاهب وغاد .. وليست أبدا طريقا ذا اتجاه واحد من المنبع إلى المصب .. كعلاقة الأنهار بالبحار التى تصب بها .

والإنسان يحتاج فى حياته الخاصة إلى دائرة محدودة من الأصدقاء الحميمين .. ومن يسعده الحظ تعطه الحياة أربعة أو خمسة أو ستة من الأصدقاء الأوفياء الذين نسميهم أصدقاء الروح ، الذين يستطيع أن يخلع أمامهم قناعه وأن يبوح لهم بهواجسه وأفكاره بلا حرج ، والذين يشعر بالأمان النفسى وهو فى صحبتهم لذلك قيل : إن حسن اختيار الرفيق أهم أحيانا من حسن اختيار الطريق .. فكل الطرق قد تؤدى إلى روما .. لكن ليس كل الأصدقاء قد يوفرون لك الأمان والاطمئنان .. والصداقة كالزهور النادرة تحتاج إلى رعاية خاصة لكى تزهر ولكى يفوح عطرها .. ومن فنون هذه

الرعاية ألا تكون مطالبك من أصدقائك كثيرة لكى تنعم بصداقتهم للأبد .. لأن الصديق الذى يرهق صديقه بمطالبه النفسية والمادية يخسره سريعا ..، ومن فنون الصداقة أيضا أن تكون أكثر استعدادا للتسامح معه ؛ ولتجاوز هفواته ، وأكثر حرصا على عدم معاتبته على كل شىء وأى شىء .. والشاعر الذى قال :

لو كنت فى كل الأمور معاتبا   صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

محق تماما فيما قاله لأن الحياة صعبة .. والعلاقات متشابكة ولكل إنسان فيها همومه ومعاناته وليس كل الأشخاص على استعداد لتحمل العبء النفسى للوم المستمر والعتاب المستمر ، وعلينا أن نقبل من أصدقائنا بعض ما لا نرضاه .. وأن نغفر لهم بعض إساءاتهم كيلا تتقطع حبال المودة نهائيا بيننا وبينهم .. ولكى تتواصل الحياة ..

فهل ما زلت يا صديق تسألنى بعد كل ذلك : هل هناك صداقة .. وهل هناك أصدقاء ؟!.

أصدقائى الستة

لكل إنسان منا ستة أصدقاء مخلصون يستطيع أن يستعين بهم على مواجهة الحياة . هؤلاء الأصدقاء هم الذين أشار إليهم الشاعر الإنجليزى كبلنج حين قال : «إن لى ستة من الخدم المخلصين الذين تعلمت منهم كل شىء ، أسماؤهم هى : من وماذا ولماذا ومتى وأين وكيف ! » ولأنى ممن يكرهون استعمال كلمة «خدم» و «خادم» فإنى أفضل أن أعتبرهم أصدقاء اعزاء لاخدما ، وأعتقد أننى من أكثر الناس استفادة فى حياتى بخدمات هؤلاء الأصدقاء الأجلاء .. فكلما اصطدمت فى حياتى اليومية بشىء لم أفهمه ولم استوعب سره ، لجأت إلى أحد هؤلاء الأصدقاء طالبا معونته ، فإذا قرأت فى صحيفة عبارة لم أفهمها لجأت إلى صديقى «ماذا» لأعرف عن طريقه ماذا تعنى هذه العبارة .. وما هو المقصود منها .. فإن لم أجد لدى من حولى من الزملاء والمعارف جوابا .. سألت كتبى ومراجعى .. وإذا قرأت اسم شخصية تاريخية لا أعرفها لجأت إلى صديقى «من» وسألته المساعدة .. وإذا رأيت جهازا من مبتكرات العلم الحديث ، لا أعرف فكرته استدعيت صديقى «كيف» من اجازته وسألته المشورة ، وهكذا فى كل أمور المعرفة وشئون الحياة وكلما سألت معارفى وكتبى سؤالا وحصلت على إجابة شافية أحسست أنى قد ارتقيت قليلا فى سلم البشر ، ذلك أنى أومن بأنه لا قيمة لإنسان فى الحياة إلا

بما يعرفه وبما تعكسه عليه هذه المعرفة من فهم للحياة ومن سعة أفق فى التعامل مع الآخرين ومن رقة فى المعاملة وحسن المعاشرة .. لأن من يعرف أكثر يكون غالبا أكثر استعدادا لالتماس الأعذار للآخرين وأكثر استعدادا للتسامح معهم وأكثر احتراما لآراء غيره .. وأكثر استعدادا للتنازل عن رأيه إذا تبينت له أوجه الخطأ فيه .

كما أنه من المفروض أن يكون أكثر التزاما خلقيا ، باعتبار أن الفضيلة هى المعرفة كما كان يعتقد أبو الفلاسفة سقراط ، إذ لا يمكن فى تصوره أن يعرف الإنسان الخير ثم لا يفعله ولا يمكن أن يعرف الإنسان الشر ثم يقدم عليه .

فارتكاب الإنسان للرذيلة سببه الجهل بالفضيلةعند سقراط ، ولا يمكن أن يكون الإنسان فاضلا إلا إذا كان عارفا بالفضيلة لكى يتبعها . ورغم مثالية الفكرة التى يرى فلاسفة آخرون أنها لا تكفى لتفسير ارتكاب الإنسان أحيانا للشر وهو يعرف جيدا ما يفعله إلا أنى أميل إليها كثيرا وأرى أن المعرفة الحقيقية بالله أولا وبحقائق الحياة لابد أن تقود الإنسان إلى الفضيلة ، والقرآن الكريم يقول لنا .. «إنما يخشى الله من عباده العلماء» أى يخشاه من يعرفه ويعرف عزته وجلاله ورحمته وغفرانه وسطوته وانتقامه وما يعد به الاتقياء من نعيم وما يتوعد به الأشرار من جحيم .

والطريق إلى المعرفة يبدأ دائما بهؤلاء الأصدقاء الستة ..بهذه «المفاتيح» التى تترجم حيرة الإنسان أمام مالا يفهمه وتحولها إلى أسئلة تبحث عن أجوبة .

وهذه المفاتيح هى التى عرف بها الإنسان أسرار الكون وتفهمها وتميز بها عن الحيوان ، فالشمس تشرق كل يوم من المشرق .. والمطر يهطل من السماء والأمواج تعلو وتنخفض صباحا ومساء أمام الإنسان والحيوان والنبات والجماد

منذ فجر الإنسانية لكن الإنسان وحده هو الذى سأل نفسه « لماذا » لماذا تظهر الشمس وتغيب .. لماذا يسقط المطر .. كيف يعلو موج البحر .. من أين تهب الرياح .. من الذى يدير هذا الكون ؟ .. إلخ .

فقاده بحثه إلى فهم أسرار الكون والسيطرة على الحيوان والنبات والجماد ومحاولة السيطرة على الطبيعة أو التفاهم معها . فالملك له سبحانه والإنسان هو خليفته فى أرضه لذلك فقد ميزه عن غيره من الكائنات بالعقل .. فاستخدم عقله واستخدم أصدقاءه الستة فى فهم أسرار هذا الكون .. والتكيف معه .

والفقيه أبو سفيان الثورى كان يقول إن أول العلم الصمت ثم الاستماع إليه ثم العمل به ، وهذا صحيح لأن من لا يصمت لا يسمع ومن لا يسمع لن يعرف ومن لا يعرف لن يسأل ولن يجادل ولن يفهم ولن يرتقى بمعارفه وخبراته وسلوكه . لذلك فإنى أرى معه أن أول العلم الاستماع إليه فعلا .. لكن ثانيه هو السؤال عما لم نفهم ولم نستوعب ثم العمل به عن فهم واقتناع وإيمان .

ورغم وجود مصادر عديدة الآن للثقافة فإن الكتاب ما زال هو المصدر الأساسى للمعرفة ، وسيبقى كذلك فى ظنى لأجيال قادمة ، وإبراهام لنكولن الذى تولى رئاسة الولايات المتحدة من سنة ١٨٦١ إلى سنة ١٨٦٥ وقاد دعوة تحرير العبيد فى أمريكا ودفع حياته ثمنا لها كان يقول : كل ما أريد معرفته موجود فى الكتب .. وخير صديق لى هو من يقرضنى كتابا ! ، وأضيف أنا إلى كلمته الشهيرة هذه أن خير صديق لى هو من يعيد إلى كتابا اقترضه منى ! لأنى لا أجزع لشىء أكثر من جزعى لفقد كتاب اقترضه صديق منى ولم يرده .. أو ضاع منه فى الزحام .

ولقد أعجبت كثيرا بما قرأته فى قصة حياة ابراهام لنكولن من أنه اقترض من صديق له كتابا عن حياة جورج واشنطون بطل الاستقلال فى الولايات

المتحدة فشغف به وراح يقرؤه ويعيد قراءته حتى أتلفه المطر وعجز عن رده لصاحبه فأحس بتأنيب ضمير شديد لذلك ولم يجد ترضية يقدمها له سوى أن يعمل مجانا فى حقل صديقه ثلاثة أيام من الصباح حتى المساء يفلح الأرض ويسويها تعويضا له عن الكتاب المفقود . وبقدر إعجابى بهذه القصة .. بقدر ما أشفقت على نفسى وعلى أصدقائى لو كنا قد طبقنا هذا المبدأ على أنفسنا منذ زمن طويل ـ إذن لعملت فى حقول الكثيرين مجانا .. ولطالبت كثيرين بالعمل فى حقلى بلا أجر شهورا وأسابيع ، لكن من نعمة الله على وعلى أصدقائى أننا جميعا لا نملك حقولا ولا حدائق .. وإلا انكسر ظهرى وظهورهم من العمل فيها بلا أجر خلال السنوات الماضية .

ولأننا نمضى العمر ونحن نتعلم كل يوم جديدا وكلما ارتقت معارفنا أحسسنا بحاجتنا إلى المزيد من العلم والمعرفة .. فعلينا دائما أن نتذكر هؤلاء الأصدقاء الستة .. وأن نستعين بهم فى مواجهة الحياة ومحاولة فهم ألغازها فالحياة رحلة مستمرة لمحاولة فهمها ومعرفة أسرارها « والرحلة فى طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال فى طلب العلم » كما قال ابن خلدون فى مقدمته المشهورة و« لقاء المشيخة » هو المقابل القديم للقاء الأساتذة والنقل عنهم وتلقى العلم منهم فإذا لم تكن لنا الآن مشيخة نسعى إلى لقائها ونسمع منها .. فلنبحث عن المعرفة فى مصادرها العديدة المتاحة لنا مستفيدين بخدمات هؤلاء الأصدقاء المخلصين !.

فهل نفعل حقا ؟.

العقل فى أجازة

اعتدت أن أنهى « الموسم الثقافى » الخاص بى مع اشتداد حرارة الصيف ، فأتوقف عن القراءة الجادة المرهقة للعقل والتفكير ، ولا أقرأ إلا للمتعة ولا أكاد اقترب إلا من كتب سبق أن قرأتها وأحببتها ، واعتدت أن أعيد قراءتها فى هذه الأجازة الموسمية ، فأحس تجاهها إحساسى تجاه أصدقاء قدامى لا أزورهم إلا فى الصيف فأجدد صداقتى بهم ، وأستعيد معهم ذكريات أحلى سنوات العمر .

ومن هؤلاء الأصدقاء القدامى كتب فى التاريخ وأعمال أدبية شهيرة تأتى على رأسها بالطبع كل روايات أستاذنا الكبير نجيب محفوظ ، ولكن من بينها أيضا كتبا أخرى ليست مشهورة على نطاق كبير وتربطنى بها مع ذلك روابط شخصية قديمة .. إما لأنى عشقتها وإما لأنها أثرت فى تفكيرى ونظرتى لبعض أمور الحياة فمن هذه الكتب مثلا رواية عجيبة لمؤلف مصرى بدأ حياته الأدبية مع نجيب محفوظ ، وكتب ثلاث روايات قيمة ، لكنه زهد الكتابة بعدها وانصرف عنها وهى رواية مليم الأكبر للأستاذ عادل كامل .

فى هذه الرواية يصور عادل كامل مجموعة من الشخصيات الغريبة التى يجمعها بيت أثرى قديم فى منطقة القلعة يديره خواجة أجنبى يؤجر غرفه لأشخاص من المثقفين الرافضين للقيم البورجوازية ، ومنها قيم الشرف

البرجوازى ، والصداقة البورجوازية ، والطبقية .. والمجاملة .. الخ ويطلقون على أنفسهم اسم « الرفاق الأنذال » لأنهم رفقاء فى السكن وسهرة كل يوم ، ومغالبة الملل لكنهم يفخرون بأنهم « أقوياء » لا يستجيبون للضعف الإنسانى الذى يسمح بقيام الصداقات وما تستتبعه من قيم « مزيفة » ، كالوفاء ، والشهامة .. الخ .. لذلك فهم يتجاورون فى سهرة كل ليلة ، ويتجاذبون أطراف الحديث ، لكنهم لا يسمحون لأنفسهم بأن يكونوا أصدقاء ! وهم يتشاركون فى لعبة قذرة ، يستخدمون فيها رسامة أجنبية متمصرة من نزيلات البيت وخادم البيت « مليم » وقواعد اللعبة تقضى بأن يختار مليم أحد الأثرياء ثم يتقدم منه ليقول له إنه خادم سيدة ثرية رأته وأعجبت به ، وأنها تطلب رقم تليفونه لتتصل به وتتعرف عليه ، فينتشى الثرى ويعطيه رقم تليفونه ومنحة مالية صغيرة ، ويعود مليم للبيت فيسلم المنحة الصغيرة لكبير الانذال وهو أكبر الرفاق سنا ورقم التليفون ، فتتصل المعجبة بالضحية وتبثه اعجابها .. ثم تنهى إليه أنها سترسل إليه رسالة حب مع خادمها إلى أن تتصل به ثانية ، وتكتب الرسالة وتعطيها لمليم ، فيسرع بها إلى الثرى الذى يسعد كثيرا ، « وتسيب » فرامله فيمنح رسول الغرام منحة مالية كبيرة يثبت بها للمعجبة الولهانة كرمه ، فيجرى مليم حاملا النقود إلى المثقفين العاطلين الجائعين الذين يمضون أيامهم فى القراءة ومضغ الكلمات ، فيشبعون جوعهم ويروون ظمأهم ويواصلون السخط على المجتمع وقيمه ومثالياته !.

وتتكرر اللعبة مع آخر وخلال اقامتهم فى بيت القلعة يمارسون نشاطهم السرى فى كتابة المنشورات وتوزيعها إلى أن يفاجأوا بأنهم قد اخترقوا من الداخل ، وأن أحدهم عميل للمباحث ويلقى القبض عليهم .

ويتفرقون فى الحياة ، ويضطر أحدهم وهو ابن باشا ثرى إلى العودة إلى

كنف أبيه « المستغل » ثم يتواءم عبر تجارب طويلة مريرة مع المجتمع الذى ثار عليه ورفضه من قبل . أما مليم وهو أكثرهم صدقا مع نفسه فقد لاطم الحياة ولاطمته حتى تحول فى نهاية الرواية إلى « محمد بك سلام » « رجل الأعمال المعروف » وتنتهى الرواية بلقاء مثير بين الثائر المنهزم ابن الباشا وبين الوجيه محمد بك سلام ، الذى يصر على أن يقدم نفسه له كخادمه السابق مليم فيصر ابن الباشا على أنه محمد بك وأنه يستحق البكوية عن جدارة أكثر مما يستحقها كثيرون ممن يحملونها ! لماذا أتذكر هذه الرواية الآن ؟ هل لأن فى الحياة صورا عديدة تذكرنا « بالرفاق الانذال » الذين يعتبرون الصداقة ضعفا إنسانيا ، ويفتخرون بقدرتهم على نبذ هذه المشاعر الإنسانية « الرخيصة » أم لأن فى الحياة نماذج أخرى شبيهة بهؤلاء الذين ينتقدون الآخرين دائما وهم أحق بالانتقاد ، والذين لا يؤمنون إلا بأنفسهم .. ولا يستطيعون أن يعترفوا لأحد بفضل أو ميزة أو معرفة

لا أستطيع أن أجزم بسبب .. لكنه ربما يكون تأثير الحر سببا كافيا لاختلاط التفكير وتشابك الصور .

ومن هذه الكتب أيضا .. « مذكرات شارلى شابلن » .. ولا تعجب لذلك ، فلعله من الكتب القليلة التى أثرت فى وجدانى ومازلت استمتع بقراءتها فى كل مرة تمتد فيها يدى إليها .. ومازالت تؤثر فىَّ صورة الصبى الشريد الضائع الذى هجر أبوه أمه فتركه وشقيقه وأمه يعانون البؤس إلى الحد الذى جُنّت معه الأم بسبب سوء التغذية وواجه الصبى مع شقيقه الحياة القاسية بلا مال ولا أهل .. ولا معين يلتقط من صندوق القمامة فضلات الطعام .. ويتحلب ريقه وهو يشاهد من خلف الزجاج رواد مطعم يأكلون ويشربون .. ثم يعمل لقاء بنسات قليلة فى مغلق للخشب قاطعا للأخشاب ، ويسافر شقيقه على ظهر سفينة بريطانية إلى الهند ليكسب بعض القروش فيبيت فى الشوراع الباردة ويتسكع فى الطرقات ويعمل ليوم واحد وهو فى سن العاشرة عاملا بمطبعة فيطرده صاحبها خوفا من قوانين تشغيل الصبية ، ويعيش أياما يصبح فيها فنجان الشاى الساخن أمنية من أمنيات العمر ، ثم تقوده قدماه إلى مكتب لتشغيل فنانى المسرح فيدخل مع الداخلين ، فيراه مدير المكتب ويسأله ماذا تريد ؟ فيقول بعد تردد ، هل لديكم أدوار للأطفال ؟ فيمسك مدير المكتب بيده ، وبدلا من أن يدفعه خارج المكتب كما توقع يدفعه إلى سكرتيرة المكتب ثم يقول له : اعطها اسمك وعنوانك وانصرف ، فيفعل ويغادر المكتب وبعد أيام تجيئه رسالة بالبريد تطلب منه التوجه إلى أحد المسارح حيث تجرى بروفات مسرحية فيها دور لصبى صغير .. فيضع قدمه على أول طريق الفن .. ولا ينسى أن يسجل أنه دخل عالم الفن بحثا عن الطعام لا عن المجد .. فأعطاه الفن الطعام والمجد والشهرة والمكانة العالمية .

ومن هذه المذكرات أذكر دائما هذه الرسالة التى بعث بها إلى شارلى شقيقه سيدنى من رحلة عمل خارج لندن يعاتبه فيها على اهماله الرد على رسالة سابقة له ، فيقول له فيها : « إن ظروف الحياة لا تسمح لنا بترف إهمال الرد على الخطابات ونحن وحيدان تماما فى هذا العالم بلا أب أو أم أو أهل أو أصدقاء .. فلماذا لم ترد على رسالتى يا شقيقى الوحيد ؟ » .

فلا أذكر أنى قرأت كلمات هذه الرسالة مرة ولم أتوقف عندها وربما أتساءل كم هى عديدة اللحظات التى يحس فيها الإنسان أحيانا بأنه وحيد تماما فى هذا العالم الواسع القاسى ؟ ومن هذه الكتب أيضا .. رواية « المسخ » لكافكا .. هذا الكاتب التشيكى العجيب إذ ماأكثر اللحظات أيضا التى

يحس الإنسان فيها بأنه شبيه ببطل رواية المسخ.. موظف الأرشيف الغارق بين الأوراق والملفات الذى تلتهم الأوراق عينيه وذهنه ويمضى به العمر وحيدا بلا متعة ولا راحة فيتسلط عليه الإحساس بأنه حشرة من النوع الذى يعيش على التهام الأوراق فإذا به يتحول فعلا إلى حشرة كبيرة وتنبت فى جسمه شعيرات كشعيراتها يحاول أن يخفيها فلا ينجح ، وتنتهى الرواية وقد تحول فى الحقيقة لا فى الخيال إلى حشرة زاحفة تخرج من البيت زحفا إلى العمل وتعود منه زحفا .

لماذا أتذكر هذه الصورة البشعة الآن .؟

.. مرة أخرى لعله الحر !.

صَبَاح الخير

كم مرة سمعت هذه العبارة ، وكم مرة حاولت أن تفكر فى معناها ؟.

إنك تسمع صديقك يقول لك وهو منفعل : إننى لا أجد نفسى فى هذا العمل !.

وصديقا ثانيا يقول لك : إننى لا أجد نفسى فى هذه الحياة ! وصديقا ثالثا يقول متفكرا : إننى أبحث عن نفسى فلا أجدها !.

فما هى هذه النفس التى يبحث عنها الإنسان وهى داخله ؟.

الحق أن هذه العبارات « الخيالية » صحيحة تماما ، لأن كل إنسان منا يبحث عن نفسه ، ويحاول أن يعرفها لكى يتواءم معها ويعقد معها معاهدة سلام ، ولأن رحلة الحياة هى فى حقيقتها رحلة الإنسان للبحث عن نفسه وعن سعادته .

فالذين لا يعرفون أنفسهم جيدا فى حالة حرب مستمرة معها ، لا تهدأ نفوسهم ، ولا يهدأون معها والذين يعرفونها جيدا هم السعداء الذين نقول عنهم إنهم يعيشون فى سلام نفسى لا تؤرقهم الرغبات التى تتجاوز قدراتهم ، ويحيون حياة يرضونها مهما كان نوع هذه الحياة ، ويعملون أعمالا يهوونها ويتلذذون بأدائها مهما كان عائدها أو مستواها !.

ومنذ قديم الزمان ، والإنسان يبحث عن نفسه ، ويحاول أن يعرف

نوازعها ودوافعها وما تحبه وما لا ترضاه .

وعلى واجهة معبد دلفى فى أثينا القديمة ، كانت هناك عبارة تقول « اعرف نفسك بنفسك » وحين جاء سقراط اتخذ من هذه العبارة شعارا له . وانطلق يحاول أن يعرف نفسه ونفوس الآخرين ، ويتساءل عن معنى كل شىء .

ومن هذه العبارة أيضا جاءت جذور علم التحليل النفسى الذى يقسم النفس البشرية إلى دوائر الشعور واللاشعور ، ويعتمد فى العلاج على مساعدة المريض على أن يعرف ما ترسب فى أعماقه من سنوات الطفولة والصبا والشباب ، ويفسر به بعض تصرفاته ونوازعه ويجتاز به دائرة المرض إلى الشفاء حين يعرف هذه الحقائق .

وبعد سقراط بعشرات القرون جاء شكسبير فقال : « أصدق نفسك تصدُق الناس جميعا ! » وهذا صحيح ، لأنك إذا عرفت نفسك جيدا كنت صادقا معها .

وإذا كنت صادقا مع نفسك فلن تكذب على أحد ، ولن تكون فى حاجة إلى ذلك ، لأن من يكذب على الآخرين يكذب على نفسه أولا ، فإذا عاهد نفسه أن يصدقها فى كل لحظة كان صادقا مع الآخرين .

وكثيرا ما يكتشف الإنسان بعد أن يسير طريقا طويلا أن هذا الطريق لم يكن له من البداية ، لو أنه عرف نفسه جيدا ، واكتشف حقيقة رغباتها وقدراتها وأهدافها الحقيقية فى الحياة !.

وعندما يحدث هذا الاكتشاف المفاجئ كثيرا ما يتغير خط حياة الإنسان من حياة إلى حياة ، أو من عمل إلى عمل أو من غاية إلى غاية أخرى !.

ولقد كان سقراط نقاشا ، فأهمل مهنته وأسرته ، وانطلق يبحث عن

الحقيقة ويجوب الشوارع ، يوجه للجميع أسئلته الحائرة ، فإذا قال له أحد صباح الخير أجابه : وما الخير؟ ، فإذا قيل له هو الفضيلة ، تساءل وما الفضيلة ؟ ثم ما العدل ، ما الشجاعة ، ما الديمقراطية ؟ ... الخ هذه التساؤلات الحائرة .

وكان هدفه الوحيد منها ، هو الوصول إلى الحقيقة عن طريق استبعاد الباطل ، وكان يقول عن نفسه إن أمه كانت قابلة تولد النساء ، وأنه يقتفى خطاها فيولد العقول ويساعد غيره على أن يخرج آراءه إلى الحياة !.

ولا غرابة فى ذلك ولا جديد فيه ، لأننا مازلنا نبحث عن أنفسنا وعن الحقيقة ، وعن السعادة وعن معانى الأشياء منذ هذا الزمن البعيد ، وقليلا ما نجدها ، وكثيرا ما نضل الطريق إليها .

فإذا قلت لى يا صديق ذات يوم صباح الخير فسمعتنى بغير إرادة منى أقول لك فجأة : وما الخير؟ فلا تحسبنى أسخر منك ، إذ ربما أكون قد اكتشفت نفسى فجأة لحظتها ، وبدأت أفكر فى البحث عن عمل آخر !.

تأملات .. فى الحديقة

نصيحة منى إذا زرت بلدا لأول مرة فلا تسأل صديقا مقيما فيه عما يجب أن تراه فى هذا البلد ! . فالمقيم يألف الأماكن والأشياء ولا يرى فيها غالبا شيئا يستحق المشاهدة .. وإذا استشرته أرخى عليك من فتوره ما يصدك عن زيارة كثير من الأماكن التى تستحق الزيارة بالفعل . وتجربتى خير دليل على ذلك فحين زرت لندن لأول مرة من ١١ سنة طلبت من صديقى المقيم هناك أن نذهب لمشاهدة ركن الخطباء فى حديقة هايد بارك الذى قرأت وسمعت عنه الكثير فقال لى صديقى بلهجة العليم ببواطن الأمور : إنه ليس سوى أكذوبة شهيرة وخدعة سياحية يضحكون بها على السياح ، فمعظم الخطباء دجالون وبعضهم نصابون يشغلون المستمعين بأحاديثهم الجذابة فى حين يقوم أعوانهم بنشل جيوبهم ! فنفرت من مشاهدته وعجبت من هذه الخدعة الشهيرة التى أثارت خيالنا طويلا عن حرية الرأى فى بريطانيا ، وكيف يستطيع أى إنسان أن يعتلى كرسيا وسط الناس ويخطب فى مستمعيه ويدعو إلى أى رأى يراه مهما كان جريئا وغريبا ، ونسيت ركن الخطباء فى زياراتى المتكررة للندن إلى أن وجدت نفسى خلال زيارتى للندن فى العام الماضى خاليا من الارتباطات عصر أحد أيام الأحد فقررت أن أغامر بالذهاب لمشاهدة ركن الخطباء مع الاحتراس التام من النشالين والنصابين ! وما أن ذهبت إليه . ووقفت فى

حلقة أول خطيب واستمعت لما يقول وما يجرى حتى ندمت على ما ضاع من زياراتى للندن بغير أن « أحج » إلى هذا الركن الشهير ، وأمضيت ثلاث ساعات أنتقل من حلقة إلى أخرى ومن خطيب إلى آخر وأنا مستمتع بما أسمع وأرى وأتأمل . وحين ذهبت إلى لندن فى الشهر الماضى كان ركن الخطباء هو أول مكان زرته فيها ، وبحثت فيه عن خطباء العام الماضى فوجدت بعضهم ما زال يمارس هوايته ووجدت وجوها جديدة تعتلى كراسى الخطابة وتنفست نسيم الحرية فى مناخ يجبر الإنسان على احترام حرية الآخرين فى إبداء آرائهم مهما بدت له غريبة أو غير مقبولة ، ففى حلقة كبيرة حول متحدث أسود اللون خفيف الظل استمتعت بحديثه ضد العنصرية ، وضحكت على تعليقاته اللاذعة ربما بأكثر مما ضحكت فى مسرحية « إجر وراء زوجتك » التى شهدتها فى هذه الزيارة ودفعت ثلاثة عشر جنيها استرلينيا أى ما يقرب من خمسين جنيها مصريا ثمنا لتذكرتها ، وكان أكثر ما يثير متعة المستمعين هو كلمات الخطيب ضد المرأة فهو ــ كما يقول ــ يحارب ضد شيئين فقط فى حياته : التمييز العنصرى والنساء اللاتى لا يرى لهن دورا فى الحياة سوى انتاج لبن الرضاعة ! ومع ذلك فإن أكثر من يستمع إليه ويستمتع بأحاديثه وتعليقاته الذكية من النساء ! وفى حلقة سمعت خطيبا يخطب ضد الماركسية والاشتراكية وإلى جواره بالضبط خطيب آخر يدعو إليهما ، وهذا يصل إليه صوت ذاك .. ولا أحد يعترض على الآخر .

وفى حلقة ثالثة سمعت خطيبا إيرانيا يهاجم الخمينى ، وعلى بعد خطوات منه خطيب آخر يدعو للمبادئ الخمينية .

وفى حلقة رابعة شاهدت أمريكيا زنجيا يدعو للإسلام ويمسك بيده نسخة مترجمة للإنجليزية من القرآن ويطالب مستمعيه بقراءته مؤكدا لهم أن

من يقرؤه يحصل على معرفة جديدة تثرى معارفه بحقائق الحياة وليس ضروريا أن يتخلى عن دينه لكن من واجب كل إنسان أن يطلع عليه لأن أكبر آفة للإنسان المتحضر أن يكون جاهلا وأن يصدر أحكامه بغير دراسة ومعرفة ، والمستمعون يسمعون له باحترام ويناقشونه فى أدب وكانت حلقته من كبرى الحلقات ومعظم مستمعيه من الانجليز الذين على استعداد لأن يسمعوا أى رأى ... وحين زرت حديقة هايد بارك هذا العام لم أجد هذا الخطيب الزنجى الأمريكى ، لكنى وجدت هذه المرة انجليزيا مسلما يرتدى الجلباب والكوفية ويمسك بالمصحف المترجم ويدعو للإسلام وإلى جوار هذه الحلقة وفى أماكن مختلفة من الحديقة وجدت ٤ خطباء يدعون للتعاليم المسيحية ويلقون عظاتهم على المستمعين وبين هذا وهؤلاء استمعت إلى « صعلوك » يدعو إلى دين جديد هو عبادة الموسيقى زاعما أنها كفيلة بعلاج كل الشرور والآثام فى الحياة .. واستمتعت بمناقشة المستمعين الساخرة له وكان أحدهم يفجر الضحكات الصاخبة بتعليقاته اللاذعة ، وبلغ الذروة حين قال الصعلوك فى سياق حديثه : إننى إنسان .. فقاطعه المستمع باسما : لا تكذب يا صديقى ! ولم يغضب الخطيب ولم يشتبك معه فى مشاجرة .. فلا مجال لذلك فى هايد بارك .. ولا مجال للعنف والانفعالية التى تفسد علينا حياتنا ، ومن حق كل إنسان أن يقول ما يشاء ومن حق المستمعين أن يعترضوا عليه وبأشد العبارات أحيانا لكن فى إطار الرأى والكلام فقط .. فالحوار فى حد ذاته متعة عقلية وليس لدى أحد استعداد لأن يفسد هذه المتعة بالانفعال والعنف والشجار .. لهذا فأنت فى هايد بارك تنتقل من حلقة تهاجم حزب المحافظين الحاكم إلى حلقة تهاجم حزب العمال المعارض .. ومن حلقة تدعو للإسلام إلى حلقة تهاجمه ومن حلقة تدعو للمسيحية إلى حلقة تهاجمها ومن حلقة تدعو للحق الفلسطينى إلى

حلقة تدعو لأباطيل إسرائيل ، ومن حلقة تهاجم التزمت الأخلاقى إلى حلقة تدعو إلى التشدد فى التمسك بالفضائل الدينية بغير أن يخرج أحد على آداب الحوار .. ومن عجب أن من يناقشون قضايا الشرق الأوسط من العرب فى حديقة هايد بارك يتأثرون بهذا المناخ الذى يقدس حرية الرأى ويحترم الآراء المخالفة ويذكرنا بكلمة فولتير الخالدة لجان جاك روسو حين حكمت السلطات السويسرية بإعدام كتاب « العقد الاجتماعى » وكان فولتير لا يقر آراء روسو فيه : إننى لا أومن برأيك لكنى على استعداد لأن أموت دفاعا عن حقك فى أن تبديه وتعلنه على الناس ، كما يذكرنا بأن خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز قد بدأ عهده بإلغاء مبدأ تجريم الخلاف فى الرأى . يتأثر القادمون من الشرق الأوسط بهذا المناخ السائد فتراهم فى الحديقة يناقشون بحرية وباحترام لآراء المخالفين مالا يجرؤون على مناقشته فى بلادهم .. ويتحاورون فى هايد بارك بالمنطق الهادئ مع خصومهم الذين لايستطيعون الحوار معهم إلا بالعنف فى منطقتنا المنكوبة بالانفعالية .

فهل عرفت الآن لماذا ندمت كثيرا على أنى لم أتعرف على ركن الخطباء فى هايد بارك سوى فى العام الماضى فقط ؟

أيام من العمر

أسعد أوقاتى عند السفر .. وأشقاها أيضا ! ! فأنا أحب السفر لكنى لا أحب وسائله من الطائرة إلى الباخرة إلى القطار إلى السيارة .. وأتمنى لو كان الإنسان يستطيع أن ينتقل من مكان إلى مكان بمجرد الارادة وليس بركوب وسائل السفر المختلفة .. بمعنى أن يقرر السفر إلى لندن أو أسوان أو الاسكندرية .. فيغمض عينيه ثم يفتحها فيجد نفسه فى المكان الذى يريده بغير تكبد معاناة السفر .. وأوقاته البطيئة المملة .

وخلال السنوات العشر الأخيرة لم أركب الطائرة مرة إلا وأنا شبه مغمى على ، بسبب عدم النوم فى الليلة أو الليالى السابقة ، لأن كل سفر يحتاج إلى إعداد واستعداد ، ودائما اكتشف أن على أن أكتب الكثير قبل السفر لينشر خلال غيابى ، فأصبح روتينى الدائم منذ عدة سنوات كلما استعددت للسفر فى رحلة للخارج أو الداخل هو أن أجلس إلى مكتبى الصغير فى مسكنى لأكتب « الواجبات » المقررة .. فيسرقنى الوقت حتى الصباح .. وأحيانا إلى ما قبل موعد السفر بساعة فأنهض من وراء المكتب لأحلق ذقنى وارتدى ملابسى وأحمل حقيبتى وأهرول إلى المطار بغير نوم ممنيا نفسى بالنوم فى الطائرة كما يفعل « الوجهاء » من معتادى السفر فتمر ساعات الرحلة وأنا مفتوح العينين .. مصدع الرأس .. مختل التوازن .. أما أصعب أوقاتى فتأتى عند الوصول إلى

المطار إذ تفاجئنى الرغبة فى النوم وأنا أنهى اجراءات الجمارك والجوازات فى المطار .. وأبذل مجهودا جبارا للاحتفاظ بعينى مفتوحتين حين أصافح من يستقبلنى من الأصدقاء ..

وفى احدى زيارتى الأخيرة للندن استقبلنى صديقى القديم الذى يعرف عاداتى جيدا وحمل عنى حقيبتى بشهامة ثم فتح لى الباب الخلفى لسيارته ودعانى للدخول فلما حاولت الركوب بجواره لنتحدث خلال الطريق قال باسما : أى كلام يا صديقى اركب فى الخلف لتنام «كالعادة» ثم نتحدث غدا .. وفى لندن أقمت خلال زيارتى الأخيرة فى شقة مفروشة لأول مرة بدلا من الفندق بعد الارتفاع الجنونى فى أسعار الإقامة بالفنادق خلال العامين الأخيرين .. وعندما وصلت إليها وجدت صديقى قد أجر لى الشقة .. وملأ ثلاجتها بالطعام والمطبخ بعلب الشاى والقهوة اللازمة .. وقبل أن يغادر الشقة اكتشف أن لمبة المطبخ تالفة وتذكر أنه لا يوجد ملح بالمطبخ .. فغادرنى سريعا ليحضر لى لمبة جديدة وعلبة من الملح .. وطالبنى بانتظاره لعدة دقائق وشدد على أن أتنبه لجرس الباب حين يدقه من أسفل العمارة فأفتح له عن طريق زرار داخل الشقة الباب الخارجى للعمارة ليدخل ووعدته خيرا ودخلت إلى غرفة النوم لأخرج ثيابى من الحقيبة وأرتبها .. ثم ارتديت البيجامة وجلست على السرير فى انتظاره .. ثم تمددت لأريح ظهرى .. وأنا مصمم على انتظاره ثم رحت فى سبات عميق ! !.

وجاء صديقى المخلص يحمل الملح واللمبة ودق جرس الباب فلم أسمعه .. فخرج إلى أقرب تليفون وطلبنى بالتليفون فلم أسمع جرس التليفون الموجود فى غرفة المعيشة .. فعرف أنى قد بدأت زيارتى « رسميا » للندن .. وعاد ادراجه ضاحكا .. وبنفس هذه الطريقة « الرسمية » بدأت كل برامج رحلاتى خلال

السنوات الأخيرة وهو تجديد فى برامج تنظيم الرحلات الخارجية أرجو ألا ينسى منظمو الرحلات السياحية فى العالم أن يسجلوه باسمى إذا غيروا برنامج اليوم الأول التقليدى من الوصول .. ثم حفل الاستقبال .. إلى الوصول .. ثم النوم إلى صباح اليوم التالى لاستعادة النشاط !!.

لكن الأمر يختلف قليلا عند السفر بالبحر .. لأن رحلة الباخرة بالأيام ورحلة الطائرة بالساعات ، لذلك احتجب فى اليوم الأول فى كابين الباخرة لأشبع حاجتى من النوم ، ثم أخرج إلى الصالون لألتمس التسلية وقطع الوقت خلال الرحلة الطويلة ، ولقد سافرت بالباخرة ثلاث مرات إلى إيطاليا واليونان وعبرت البحر المتوسط فى رحلة تستغرق ٥ أيام طويلة بطيئة ، وسافرت بالباخرة النيليةمرتين ذهابا وايابا من أسوان إلى أبى سمبل فى رحلة تستغرق ٢٥ ساعة .. تسبح خلالها المركب كالبطة الزاحفة فوق مياه النيل الهادئة ، وكانت آخر رحلاتى النيلية منذ حوالى عشرين سنة لأكتب تحقيقا عن معابد أبى سمبل التى تم نقلها وقتها من موقعها القديم فى بطن الجبل إلى موقع أعلى لكيلا تغرق فى مياه بحيرة السد ، ولأسجل لحظة تسلل أشعة الشمس لأول مرة بعد نقل المعبد إلى قاعة قدس الأقداس فى موعدها الطبيعى كل سنة خلال شهر فبراير .. وهى معجزة فعلا من معجزات المهندس الفرعونى القديم الذى صمم وأقام هذا المعبد ، لأن قاعة قدس الأقداس تمتد داخل المعبد إلى مسافة لا تقل عن ١٢ مترا ، ولا تدخلها الشمس إلا مرتين كل سنه إحداهما فى فبراير كل سنة فتتسلل أشعتها إلى عمق المعبد لتضىء وجهى التمثالين المنتصبين فوق كرسى العرش فى القاعة الداخلية وحين سافرت إلى هناك كان معبد أبى سمبل قد انتهت أعمال نقله واقامته بالخبرة المصرية والسويدية لأن السويديين هم ملوك أعمال الحجر وفك وإعادة تركيب أحجار التماثيل والمعابد والقصور

القديمة ، وكان خبراء الآثار المصريون فى قلق شديد مع اقتراب الموعد السنوى لدخول أشعة الشمس إلى قدس الأقداس .. فإذا وصلت إلى وجهى الملك رمسيس وزوجته الملكة نفرتارى فى موعدها كان ذلك يعنى أن المعبد قد تم تركيبه بنفس زوايا موقع المعبد القديم ، أما إن لم تصل فمعناه العكس .. ومعناه أن يفقد هذا الأثر الرائع المنحوت فى الصخر احدى ميزاته .. ولهذا ركبت الباخرة النيلية الصغيرة لتسجيل هذه اللحظة التاريخية .

وكان الوقت على المركب النيلية « الدكة » يمضى بطيئا متثاقلا .. فليس على المركب من وسائل التسلية المعروفة فى بواخر الركاب التى تمخر أعالى البحار شيئا ولم يكن أمامى مفر من محاولة القراءة واجترار الأفكار .. وحيدا فى صالونها .. وبين حين وآخر اتسلل بنظراتى إلى الركاب الآخرين لأرقبهم واتسلى بملاحظة تصرفاتهم وأحاول التنبؤ بشخصياتهم .. وهى عادة ذميمة من عاداتى حين أكون على سفر بلا رفيق يشغلنى ويهون على محنة ساعات السفر .. وهى محنة فعلا لمن كان وحيدا وبلا رفيق .. لهذا حرص العرب القدماء على أن يسافروا فى صحبة .. واهتموا باختيار رفيق السفر .. أكثر من اهتمامهم باختيار الطريق الذى يقطعونه إلى هدفهم .. وقالوا إن الرفيق قبل الطريق .. واخترعوا الحداء أى الغناء خلال الرحلة فوق الجمال ليلتمسوا التسلية أثناء السفر .. لكننا الآن نسافر فرادى .. ونضع فى آذاننا بدلا من الحداء سماعة استريو لنسمع الموسيقى التى تذيعها الطائرة .. فلا تبدد الموسيقى وحشتنا ومازلت أذكر ضيقى بوحدتى وأنا جالس فى صالون الباخرة الدكة .. وركابها القلائل يتناثرون فيها فى حلقات متباعدة وكلهم عازفون عن التعرف بالآخرين .. مع أن رحلات البواخر هى دائما خير مناسبة للتعرف بأصدقاء جدد ..

المهم جلست وحيدا فى صالون الدكة اقطع الوقت بالقراءة وأرقب وجوه

الركاب .. ولا مفر أمامى من ذلك مع أن « من راقب الناس مات غما » كما يقول الشاعر لكن ماذا أفعل بوقتى .. وأنا اقرأ قليلا وأسرح كثيرا .. ولا أجد ما أفعله سوى النظر إلى الآخرين ؟!!.

وكان الآخرون الذين يشاركوننى الرحلة رجل آثار وزوجته وأبناءه وكان الرجل فى الخامسة والخمسين تقريبا والزوجة شابة فى الثلاثين وجميلة .. ثم مهندسا شابا آخر وزوجته ، وزوجين شابين يبدوان فى مظهرهما كطالبين من طلبة الجامعة ، وكانا الوحيدين اللذين يتبادلان الكلام والضحك ويتلهفان على التعرف بالآخرين ، ثم مهندسا يبدو مهذبا ويسافر وحيدا وكعادتى فى مثل هذه الرحلات البطيئة كنت قد وثقت صلاتى بأهم شخصية فى نظرى من طاقم الباخرة وهو السفرجى !! فبعد فك مغاليقه بالوسائل التقليدية .. بدأت ألاحقه بطلباتى وأسئلتى .. شاى .. قهوة .. أسبرين .. وكان نوبيا طيبا فى الستين تقريبا من عمره ومتزوجا حديثا للمرة الثانية من زوجة فى الثامنة والعشرين من عمرها .. ولم يلبث أن اطمأن إلى فحكى لى عن زواجه الثانى .. وكيف اضطر إليه بسبب انصراف زوجته الأولى عن الاهتمام به إلى أولادها الكبار واعتقادها أن دور الزوجة فى حياة زوجها يتوقف عند سن الخمسين .. لهذا لم تنزعج حين علمت بنيته فى الزواج من أخرى صغيرة السن .. ولم تر فى ذلك ما يستحق لوم زوجها !!.

فقلت له .. يا بختك يا عم بسطاوى !.. وعدت أحاول القراءة حتى حان موعد الغداء ومر بسطاوى بين الركاب يدق الدونج دقاته الموسيقية المعروفة ليدعوهم إلى الغداء .. والدونج هو صينية نحاسية يدقها السفرجى بعصا خشبية صغيرة .. فتصدر عنها أصوات رنانة تقع فى أذن الجائع موقعا أجمل وأحلى من موسيقى فاجنر وبرامز ..

فنهضت مسرعا إلى قاعة الطعام .. ولاحظت أن الزوج الغيور قد

اصطحب أسرته إلى الكابين لتتناول غداءها فيها بعيدا عن عيون الركاب . وكذلك فعل المهندس الآخر وزوجته .. ولم يجلس إلى المائدة سوى الزوجين الشابين والمهندس الوحيد وأنا .. وعلى المائدة تم التعارف بيننا وعرفت أن المهندس الشاب يعمل فى أبى سمبل مهندس انشاءات وأن الزوج الشاب طبيب وقد جاء مع زوجته الشابة إلى أبى سمبل فى رحلة لكيلا تمل الزوجة رتابة الحياة فى كوم امبو ..

وعقب الغداء استأذن المهندس الشاب وانسحب إلى غرفته لينام ساعة القيلولة واستأذنت زوجة الطبيب وذهبت إلى غرفتها ، وسألنى الطبيب الشاب : هل تنام فى الظهر ؟.. فقلت له : ولا فى الليل !! فسعد بذلك وانطلق يتحدث حتى استيقظت زوجته وانضمت إلينا واستيقظ المهندس الشاب ولحق بنا ولم نفترق بعدها .. فعندما جاء الليل صعدنا إلى ظهر الباخرة لنستمتع بنسيم الصيف ورؤية البدر الذى أكدت زوجة الطبيب أنه سيظهر هذه الليلة مكتملا .. فلم يظهر أو ظهر وحالت السحب السوداء الكثيفة دون أن نراه .. ولم يؤثر ذلك فى استمتاعنا بهدوء الليل ونسائم الصيف الرطيبة والحديث ذى الشجون بين مسافرين لا شاغل لهم سوى قطع الوقت وانفضت الجلسة بعد الثانية صباحا . ونزلت إلى الكابين فلم أستطع النوم قبل الرابعة .. ولم أكد استسلم له .. حتى سمعت صوت طرقات على بابى ظننتها فى البداية حلما .. ثم لم ألبث أن تأكدت أنها طرقات حقيقية على باب الكابين فتساءلت شبه نائم : من ؟ فجاءنى صوت الطبيب وزوجته يقولان فى حيوية : اصح يا أستاذ لترى شروق الشمس فوق المركب !!.

شروق الشمس ! إننى استجيب أحيانا لنزوات من هذا النوع .. وحين كنت طالبا بالجامعة كنت عضوا فى جمعية ثقافية كان اسمها غريبا هو جمعية الصعاليك وكانت تعقد إجتماعات دورية للقراءة والمناقشة وتطالب أعضاءها

بالتمتع بجمال الطبيعة وبالاجتماع لرؤية غروب الشمس مرة كل أسبوع عند سفح الهرم ولرؤية شروقها مرة كل شهر فوق جبل المقطم . لكن شروق الشمس هنا فوق الباخرة الدكة وأنا لم أنم سوى أقل من ساعة .. شيء آخر ! وحاولت الاعتذار .. فلم يتزحزح الزوجان الشابان من أمام الباب .. وطار النوم من عيني فنهضت متثاقلا وارتديت ملابسي وخرجت فوجدت الطبيب يرتدي المايوه وزوجته البنطلون وفي قمة النشاط .. فقلت لهما أنا جاهز هيا إلى شروق الشمس .. وتحركنا إلى السلم .. وقبل أن نصل إلى الدور العلوي توقفت فجأة كأني تذكرت شيئا ثم طلبت منهما مصاحبتي وعدت أهبط إلى الدور السفلي وتوجهت إلى كابين المهندس الشاب رفيق السفر .. وطرقت باب غرفته بعنف وصحت به مصطنعا الجدية الشديدة : يا مدحت بيه يا مدحت بيه ؟ فأجاب من الداخل مفزوعا : نعم ؟.

ـ اصحى !.

ـ لماذا ؟.

ـ لترى شروق الشمس من فوق ظهر المركب ..

فأجاب مذهولا : شروق إيه ؟.

فقلت بنفس الجدية : شروق الشمس يا باشمهندس .. أنت مش فنان والّا إيه ؟ .

وتخيلت حاله في الداخل وهو يساوره الشك في جنوني .. قبل أن يقول بتسليم : يا فلان بيه أنا مش فنان .. أنا عايز أنام ! !.

لكن هيهات .. فلم اتزحزح من أمام الكابين .. حتى خرج مرتديا ملابسه لاعنا في سره اللحظة التي تعرف فيها بنا .. وتوجهنا جميعا إلى سلم الباخرة لنصعد إلى أعلى .. وعلى السلم أيضا فاجأني خاطر آخر فسألت زوجة الطبيب : لكن ماذا نفعل إذا عاكستنا الشمس .. ولم تشرق كما فعل القمر بنا أمس ؟.

وصعدنا إلى ظهر المركب واستمتعنا بأجمل لحظات الرحلة وربما أجمل لحظات العمر .. وتكلمنا وضحكنا .. وتأملنا القرص الأحمر الدامي على رأي المرحوم يوسف السباعي في « بين الاطلال .. اذكريني .. » .

ومرت اللحظات سعيدة .. مرحة .. نشيطة .. حتى عزف عازف الدونج موسيقاه الشهية يدعونا إلى الافطار .. وكنا جائعين بشدة فكانت أنغام الدونج هي أحلى الأنغام التي سمعتها في حياتي .

ووصلنا إلى أبي سمبل وأقمنا بها ثلاثة أيام وتفرجنا على المعبد .. وسجلت لحظة تسلل الشمس إلى أقدام رمسيس ونفرتاري .. وفرحت مع الفرحين .. وتركنا المهندس الشاب مدحت هناك ليواصل عمله ، وعدنا بنفس المركب : الطبيب الشاب وزوجته وأنا فتواصل اللقاء بيننا وأصبحنا منذ ذلك اليوم البعيد وحتى الآن من أقرب الأصدقاء .. أما المهندس الشاب فقد أصبح يتردد عليّ في القاهرة كلما جاءها في اجازة ثم بعد أن انتهى عمله بأبي سمبل واستقر بالقاهرة وكلما جاءني سألني باسما : إيه أخبار الشروق فأجيبه متحسرا : كانت أحلى الأيام .. ثم أقول لنفسي متحسرا .. ألا ليتها تعود لكن كيف تعود وقد :

وليّ الشباب فما له من عودة .. وأتى المشيب فأين منه المهرب ؟

نعم أين منه المهرب إلا في شباب القلب والأفكار .. وحب الناس .. والعطاء للآخرين .. واستمداد روح الشباب من مساعدة من يتلمسون أول الطريق .. ويشقون طريقهم بين الصخور ليقطعوا نفس المشوار .. ويكرروا نفس القصة ..

قصة الأمس واليوم وغدا ..

وفى الحديقة .. نسيت نفسى

أحب الصناعة وأنا فى مصر .. وأكرهها وأنا فى الخارج ! أحبها وأنا فى مصر ، لأنى أومن بها كطريق للتقدم وأتمتع بثمارها وأنا بعيد عن دخانها ومصانعها ، وأكرهها وأنا فى الخارج لأنى حين أدعى لزيارة أية دولة لابد أن يتضمن برنامج الزيارة زيارة بعض مصانعها .. لأن الأمم تباهى بعضها بتقدمها فى الصناعة .. وكل دولة مهما كانت ناشئة تحرص على أن تقنع زائرها بأنها دولة متقدمة صناعيا .. أو على الطريق إلى ذلك .. لذلك فلابد من زيارة بعض المصانع .. ولابد من السفر لمسافات طويلة من العاصمة إلى أقصى المدن لزيارة المصانع الكبرى .. ولابد من « الشحططة » بين العنابر وسماع شرح المختصين لميزاتها وأرقامها ! ولا بأس بذلك فكل أمة بصناعتها معجبة !.. لكن « البأس » الحقيقى هو فى شخصيتى أنا وليس فى الصناعة لأنى بكل أسف من « المضروبين » بالأدب والفن الذين لا يقتنعون بتقدم أمة بسبب صناعاتها فقط .. وإنما أيضا بإسهامها الحضارى فى الفكر والأدب والفن والثقافة الإنسانية . ولأنى أيضا ممن جنت عليهم برامج التعليم العقيمة التى أهدرت أحلى سنوات العمر فى دراسة أثر البيئة فى شعر الشعراء .. وفى ادراك التطور الذى طرأ على شعر الشاعر الجلف الذى أراد أن يمدح الخليفة فقال له : أنت كالكلب فى وفائه .. وكالتيس فى صراع الخطوب ! فلما هم بأن يبطش به قيل له : اعذره يا مولاى فهو قادم من الصحراء حيث لا جمال ولا خيال وقد عبر عن نفسه بما ألهمته به بيئته الصحراوية الجافة .. فأمر بأن يقيم فى قصر فخم ببغداد تحيط به الحدائق الغناء ويطل على ضفاف نهر دجلة ثم استدعاه بعد شهور وطلب منه أن ينشده .. فقال :

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى !.

فى مثل هذا أمضينا سنوات التكوين فى المدارس .. فلما شببنا عرفنا بعد فوات الأوان أن دول العالم لا تتقدم بذلك وحده وإنما بساحر العصر وهو العلم الذى ينتج الصناعة ويحقق المعجزات ، وجاء ذلك متأخرا بعد أن تكونت شخصياتنا وترسخت طباعنا .

وحين زرت فنلندا وهى دولة متقدمة علميا وصناعيا طلبت من الجهة الداعية أن تيسر لى حضور حفل كونسير لموسيقارها العبقرى سبيليوس .. فنظموا لى زيارة لمصنع لإنتاج كابلات الكهرباء العملاقة ! .

وحملتنى السيارة إلى المصنع البعيد وطافوا بى ارجاءه الواسعة لأعرف الفرق بين أنواع الكابلات المختلفة وأشاهد خام النحاس وهو يتحول إلى سعير منصهر .. ثم إلى كابلات رفيعة وتحطمت ساقاى وأنا أتنقل من صالة إلى صالة ومن عنبر إلى عنبر ، وعلى باب المصنع ودعنى مديره فشكرته وأبديت اعجابى بمصنعه .. ثم ركبت السيارة عائدا إلى العاصمة . وأنا أقول لنفسى لو حضرت حفلا لسبيليوس لازددت اقتناعا بحضارة فنلندا .!.

وفى أمريكا نظموا لى زيارة لمصانع وفروع شركة وستنجهاوس وظللت لمدة أسبوع انتقل بالطائرات الصغيرة من مدينة إلى مدينة ومن ولاية إلى ولاية لأعرف أن الشركة تنتج الرادار ومحطات الكهرباء الضخمة وعشرات المنتجات المختلفة وليس فقط الثلاجات والأدوات الكهربائية كما يظن أمثالى من المضروبين بالأدب . ! وفى أحد فروعها أصر مديره على أن يجرى أمامنا تجربة لاختيار

الأحمال الكهربائية الكبيرة .. وأوصلوا التيار فى الهوائيات الضخمة المعلقة فى سقف الصالة وأخرجونا منها وأغلقوا الباب الحديدى بيننا وبينها ونظرت إلى السقف أرقب التجربة فإذا بصوت انفجارات رهيبة يدوى فى المكان فهممت بأن انبطح أرضا كما علمونا فى حصص التربية العسكرية بالمدرسة الثانوية أيام زمان .. لكنى ترددت حين رأيت كل من حولى هادئين باسمين لأن هذا الصوت الفظيع مألوف لديهم فافتعلت الهدوء وأنا مضطرب . وابتسمت وأنا مكتئب وشكرت مدير المصنع وأسرعت بالخروج ولسان حالى يقول : لو دعونى أيضا لمشاهدة مسرحية ليوجين أونيل فى برودواى لاقتنعت أكثر بتقدمهم الحضارى . !.

وفى رومانيا دعيت لزيارة مصنع للسيارات .. وطاف بنا مديره من مكان إلى مكان وراقبنا عملية تجميع سيارة إلى أن تم تجميعها بالكامل وأخرجوها إلى ساحة المصنع لتجربتها وبالغ المدير فى الحفاوة بنا فدعانا لركوبها وقادها بنفسه ليجربها فى ساحة تجارب السيارات وهى ساحة واسعة مقسمة إلى حارات ودوائر لاختبار قوة السيارة وزوايا عجلاتها وقدرتها على المناورة وقاد السيارة فى هذه الحارات الضيقة بسرعة ١٢٠ كيلو مترا ودار فى دوائرها ونحن نتخبط داخلها .. ينحرف يسارا فنرتمى إلى اليمين وينحرف يمينا فنرتمى إلى اليسار .. وانتهت التجربة وغادرت السيارة وأنا دائخ خائر القوى أقاوم الغثيان وتنفست الصعداء وأنا أغادر المصنع شاكرا للجميع كرم ضيافتهم ، وفى السيارة قلت لنفسى : ولو .. ستبقى رواية الكاتب الرومانى قسطنطين جورجيو « الساعة الخامسة والعشرون » أهم ما يذكرنى برومانيا .. وأكثر ما يعجبنى من ثمار حضارتها !.

وفى جيبوتى الدولة الأفريقية العربية الصغيرة .. أصروا على أن يطلعونى

أيضا على « نهضتها » الصناعية فنظموا لى زيارة لأحد المصنعين الوحيدين اللذين أقيما فى جيبوتى وهما مصنعان صغيران أقيما فيها منذ ٣أعوام بمعونة سعودية أحدهما للألبان والآخر للمياه المعدنية وجاءنى مدير مصنع المياه فى فندق شيراتون فى الخامسة صباحا ليصطحبنى لزيارة مصنعه فى بلدة اسمها تاجورة يفصل بينها وبين العاصمة خليج لابد لعبوره من ركوب طائرة وخرجت معه من الفندق صاغرا وركبت الطائرة فإذا بها طائرة صغيرة لا تتسع إلا لـ ١٢ راكبا وحلقت الطائرة فى الجو وعبرت الخليج فى ٥ دقائق ثم بدأت تهبط فجأة وبشكل عمودى مخيف على الساحل الآخر ونظرت من النافذة فلم أجد مطارا ولا ممرات ورأيت الطائرة مستمرة فى الهبوط .. فقر فى يقينى أنها تسقط أو تهبط اضطراريا على الأرض الجرداء .. وانخلع قلبى واغمضت عينى انتظارا للمصير المحتوم .. ثم فتحتهما بعد دقيقة فوجدت الطائرة على الأرض ومدير المصنع يدعونى للنزول ..

واكتشفت أن مهبط الطائرة مجرد مساحة من الأرض غير المرصوفة بلا ممرات ولا مراقبين جويين أو أرضيين ولا أى شىء آخر واستجمعت شجاعتى ونزلت وحملتنا السيارة عبر طرق جبلية وعرة وفى لهيب الشمس الحارقة إلى المصنع الصغير فإذا به خط إنتاج واحد صغير يعمل عليه ٤ أو ٥ عمال .. يبدأ بخام البلاستيك الذى يصهر وتصنع منه الزجاجة ثم تعبأ بالماء وتقفل وتوضع عليها العلامة التجارية .. ورائع وعظيم وشكرا ثم إلى الطائرة الملعونة مرة أخرى ..

وقد ذكرنى ذلك بما جرى لى فى جيبوتى أيضا فى حفل الاستقبال الذى أقامه لى سفيرنا السابق هناك السيد على فخرى وهو شخصية ممتعة وابن أستاذ المصريات الشهير الدكتور أحمد فخرى .. فلقد أقام الحفل فى حديقة السفارة

ودعا له عددا كبيرا من المدعوين ونبهني بدبلوماسيته الرقيقة إلى ضرورة الوقوف إلى جواره فى مدخل الحديقة لاستقبال المدعوين حتى يأتوا جميعا ثم إلى ضرورة توزيع اهتمامي عليهم جميعا بعد ذلك طوال الحفل .. فأقف مع كل منهم عدة دقائق واتبادل معه الحديث فى السياسة والأحوال العامة والطقس كما يفعل الدبلوماسيون فى مثل هذه الحفلات والتزمت بتعليماته حرفيا وأنا أحاول أن أكون عند حسن ظنه حتى جاء سفير اليمن الشمالية وتبادلت معه كلمات الترحيب ثم جرنا الحديث إلى الشعر العربي .. فاكتشفت أنه شاعر وراوية للشعر ويحفظ الكثير جدا من الشعر العربي واكتشف هو أنني من هواة الشعر فأمسك بذراعي وانتحينا جانبا من الحديقة وقد عثر كل منا على كنز فى شخص الآخر يخرجه من ملل المجاملات والعبارات التقليدية فى الحفلات المماثلة فراح يسألني عن محفوظاتي من الشعر ويبارزني فيه ويطالبني بأن أذكر له أى بيت من الشعر العربي ليكمله ويقول لى من قائله فانقدت وراء طبيعتي ونسيت تعليمات على فخرى وأصول البروتوكول .. وسرحت مع السفير اليمنى فى أرجاء الحديقة أقول له :

زخارف الدنيا أساس الألم .. فيكمل هو :

وطالب الدنيا نديم الندم .

هذا لعمر الخيام !.. فأقول له : لكل شيء إذا ما تم نقصان .. فيكمل :

فلا يغر بطيب العيش إنسان ..

هذا للشاعر الأندلسي الرندى ! ثم أتنبه على ذراع السفير على فخرى يشدني ليعرفني بمستشار السفارة الفرنسية وما أكاد أتبادل معه بعض الكلمات المجاملة .. حتى يناديني السفير اليمنى ويقول لى : ماذا عندك أيضا .. ! فأقول له : الدين يسر والخلافة بيعة .. فيكمل : والأمر شورى والحقوق قضاء ! ثم

يقول هذا اعجاز من أمير الشعراء أحمد شوقى الذى لخص الشريعة الإسلامية كلها فى بيت شعر واحد من ٨ كلمات !.. وهكذا ظللنا طوال السهرة نتطارح الشعر . وانصرف المدعوون بغير أن أشعر . ولم أتنبه إلا والحديقة خالية من الجميع ما عدا السفير اليمنى والسفير المصرى وموظفى السفارة وقد جلس على فخرى على كرسى بجانب البوفيه يستريح من عناء الوقوف لمدة ساعتين وهو ينظر إلى فى عتاب باسم ثم يقول لى : فضحتني ! فأنفجر ضاحكا .. وتنتقل العدوى إليه ويضحك . واضحك معه لأني انتقمت أخيرا من برامج الدعوات التى تسجنني فى غير طبيعتى ولا تتركني أبدا على سجيتى .. وانتهت المناسبة وأصبحت من ذكرياتي التى أتذكرها دائما كلما وجدت نفسى سجينا داخل عنبر من عنابر المصانع التى لابد أن تكون فى برنامج زيارتى فهل عرفت ماذا أعنى عندما قلت لك إنني أومن بالصناعة وأنا فى مصر وأكرهها من قلبي إذا دعيت لزيارة أية دولة فى الخارج ... نعم تحيا الصناعة ولكن يحيا الأدب والفكر والموسيقى أيضا . ويحيا التعليم السليم الذى لا يسجن الشباب فى الفكر النظرى الذى يخرجهم إلى الحياة كالجندى الاعزل من السلاح فى عصر العلم وأيضا يحيا التعليم الذى لا يسجنهم فى إطار العلم التجريبي وحده فيخرجهم إلى الحياة محرومين من تذوق ثمار الفكر الإنساني .. فيفقدون أنفسهم ويتحولون إلى آلات صماء .. لكن هذا حديث آخر !! .

شاهدت الأمر

أمضيت فى روما يومين ، أنفقت معظمهما واقفا أمام تمثال أمير الشعراء أحمد شوقى فى حدائق بورجيزى !.

فبالرغم من أنى زرت إيطاليا مرتين قبل ذلك فلم أكن قد رأيت روما ولا « شاهدت الأمر » فيها !.

و« الأمر » هنا إشارة إلى بيت الشعر الجميل الذى اختاروه بعناية من أشعار أمير الشعراء ليسجل على قاعدة تمثاله هناك ، ويقول :

قف بروما وشاهد الأمر واشهد   أن للملك خالقا سبحانه

ولم أكن فى حاجة لأن أقف بروما ، لكى أشهد أن للملك خالقا سبحانه ، لكنى بالتأكيد فى حاجة إلى أن أشاهد « الأمر » نفسه الذى يحيى فى الأذهان هذه الحقيقة البديهية .

وهكذا انطلقت فى الشوارع مسلحا بخريطة للمدينة ، انتقل من شارع إلى شارع ومن ميدان إلى ميدان ومن متحف إلى متحف ، وبين حين وآخر أجدنى بالقرب من حدائق بورجيزى التى تقع فوق ربوة عالية فأصعد إليها لأتوقف لحظات أخرى أمام تمثال أحمد شوقى : أنظر إليه وإلى التعبير الوديع الحالم فى عينيه وإلى الوردة التى يمسكها بإحدى يديه ، وأعيد قراءة بيت الشعر ، وأتفكر فى معانيه ، وأحاول أن أتذكر من أى قصيدة هو فلاتسعفنى [1] الذاكرة .

(١) رجعت للشوقيات فوجدته مطلع قصيدة بعنوان « روما » بالجزء الأول منها ص ٢٤٨ .

إنه تمثال ضخم جميل نحته المثال الراحل جمال السجينى ، وأقيم فى موقعه فى أبريل ١٩٦٢ ليكون أول وآخر تمثال لمصرى فى أوروبا الآن ولكن قاعدة التمثال أغفلت بكل أسف هذه الحقيقة الأساسية فكتبوا عليها بالعربية والايطالية : الشاعر العربى أحمد شوقى ، ورغم اعتزازى بعروبتى ، فلقد كنت أتمنى لو لم يغفلوا تسجيل مصريته إلى جانب عروبته على قاعدة تمثاله .

والوقوف أمام تماثيل الأدباء والمفكرين عادة قديمة عندى ، ولا أعرف لماذا تجذبنى تماثيلهم وتشدنى إليها فأتوقف أمامها طويلا كأنى أقف أمام صديق لم أره منذ زمن ؟!.

وحين كنت فى لندن قبل زيارتى لروما ، تفرغت يوما كاملا للذهاب إلى مدينة ستراتفورد مسقط رأس أديب الانجليزية الأشهر وليم شكسبير ، وانحشرت فى سيارة صديق مقيم فى لندن لمدة ساعتين ، لكى أزور بيته الذى جعلوا منه بذكاء حضارى وثقافى عظيم متحفا يؤمه السياح ، ويرون فيه غرفة نومه وغرفة معيشته ونماذج من مخطوطاته والمائدة الخشبية التى أبدع فوقها روائعه الأولى قبل أن ينتقل للإقامة فى لندن ، ولأرى أيضا تمثاله الكبير المقام فى مدخل المدينة ومن حوله تماثيل بعض شخصياته المسرحية المعروفة كليدى ماكبث وهاملت وغيرهما .

وأدهشنى أن هذا التمثال قد أقيم فى موقعه منذ مائة عام بالضبط ، وأن من أقامته على نفقتها سيدة بريطانية محبة للأدب وعاشقة لشكسبير ، وأنها أقامته بمناسبة الذكرى السنوية الخامسة لوفاة زوجها اللورد المحب للآداب والفنون والذى كان شكسبير أديبه المفضل ! .

يا إلهى .. إن التقدم لا يأتى من فراغ ولا ينبع من العدم ، فهناك يتطوع الأثرياء لتكريم الأدباء والمفكرين العظام ، وهنا يتطوع السفهاء برش النقود

فوق رءوس الراقصات والمطربين من أمثال كتكوت وفرفور !.

وهنالك يعتبرون مساكن الأدباء والمفكرين ومتعلقاتهم الشخصية كنوزا يحفظونها للتاريخ ويعرضونها كتراث يفخرون به أمام العالم ، وهنا يتنازع الورثة على اقتسام « ملابس » المفكرين وممتلكاتهم الضئيلة قبل أن تبرد الدماء فى جثمان الراحلين منهم !.

وأمام تمثال شكسبير الشامخ فى موقعه وقفت طويلا ، وأمام تمثال صديق المعذب هاملت المقام حول القاعدة وقفت أطول وأطول .

إنه صديق قديم بينى وبينه محاورات داخلية .. وتأملات قديمة !.

لقد اختاروا له مشهدا عميق الدلالة من مشاهد المسرحية التى تحمل اسمه ، هو : مشهده وهو يمسك بجمجمة « يورك » مضحك الملك الذى طالما أضحكه فى طفولته وصباه يتأملها ويقول لصاحبها : أين مزاحك الآن وأناشيدك وأغنياتك !.

ولأمر مالا أعرف سببه لاتستهوينى تماثيل الساسة وقادة الحروب بقدر ما تستهوينى تماثيل الأدباء والعلماء والمفكرين ، وأتذكر غالبا فى كل مرة أقف فيها أمام تمثال لأحدهم كلمة الفيلسوف الألمانى شوبنهاور التى قالها وهو مشغول بتخليد ذكرى الشاعر الألمانى العظيم « جوته » : إن العلماء والفلاسفة ينبغى أن تقام لهم تماثيل نصفية فقط لأنهم يخدمون العالم برءوسهم ، أما الساسة والقواد فينبغى أن تقام لهم تماثيل كاملة ، لأنهم يخدمون العالم بكيانهم كله !.

ولم يسمع له أحد لحسن الحظ ، وإلا لحرمنا من رؤية التماثيل الكاملة لشكسبير وجوته وفولتير وأحمد شوقى وغيرهم ، وإن كان هو قد نفذ فكرته فى حياته الخاصة فكان يضع على مكتبه تمثالين نصفيين أحدهما للفيلسوف

« كانت » والآخر لـ « بوذا » ويمضى الساعات أحيانا صامتا يحدق فى تمثال بوذا !.

ولا أنسى حين تركت تماثيل الساسة والقادة فى متحف مدام توسو بلندن منذ عشر سنوات ، وتسمرت أمام تمثال الأديب والمفكر الفرنسى فولتير القصير الماكر الذى أشبع العالم بسخريته حتى ضاق بى مرافقى وجذبنى جذبا من أمامه .

وقد أسعدنى الحظ خلال جولاتى فى شوارع روما باكتشاف متحف صغير لتماثيل الشمع اسمه متحف غاريبالدى ، فدخلته على الفور ، وطفت بتماثيله سريعا ، حتى وجدت بغيتى فى تمثال الكاتب الفرنسى الكبير أونوريه بلزاك بملابسه التقليدية الحمراء التى كان يرتديها حين يتفرغ للكتابة ، والذى يقلده صديقى الأديب أحمد بهجت بطريقته الخاصة عندما يتهيأ للكتابة فى الشتاء فيرتدى القفطان المغربى ويجلس إلى مكتبه بالساعات لينسج مقالاته ومؤلفاته ، أما فى الصيف فهو لا يقلد بلزاك ، ويفضل أن يكتب بملابس طرزان !.

وأعود إلى جولاتى فى مدينة روما ، وأكتشف أن « الأمر » ـ الذى ربما عناه شوقى ـ هو أن المدينة متحف كبير ، فى كل ميدان من ميادينها أثر قديم أو قلعة من آثار الماضى أو كنيسة تاريخية تتحدى الزمن بمعمارها الهندسى الفريد أو بوابة من بوابات روما القديمة حافظوا عليها ورمموها لتكون شاهدا للأجيال على المجد القديم ! « إذ الناس ناس .. والزمان زمان ! » كما يقول الشاعر !

لكن الحياة لا تتوقف يا صديقى ، والماضى يصب دائما فى الحاضر والحاضر يقود للمستقبل ، ومن قديم الزمان والناس يتوجعون على الماضى الذى كان ، لأن اليوم الذى يمضى يخصم من فاتورة العمر ، ونهر الحياة يمضى فى طريقه دائما حاملا الجديد وتاركا القديم وديعة فى ذمة التاريخ ، لكى نراها فى

المتاحف ونشاهدها فى الميادين ، ونتذكر ، ونتأمل حكمة الحياة ، ونشهد مع شوق ومع العقلاء فى كل زمان ومكان ، بأن للملك خالقا سبحانه .. للملك خالقا سبحانه .

النقط .. بين الحروف

ذات يوم بعيد دخلت مبنى الأهرام القديم فى باب اللوق ، فانتفض موظف الاستعلامات واقفا ، ثم مال على أذنى ليقول لى باهتمام شديد : « الأستاذ ... » يطلبك فشكرته ، ودخلت المبنى وأنا أفكر : ترى ماذا يريد الأستاذ منى ، وأنا محرر شاب فى الأهرام العتيد الذى يضم جهابذة الكتاب والصحفيين ؟.

وكنت قد انتهيت يومها من نشر سلسلة من التحقيقات الصحفية عن ظاهرة تكررت أيامها ، وهى إقدام عدد من طلبة الثانوية العامة على محاولة الانتحار خلال امتحان الثانوية العامة ، بسبب صعوبة الأسئلة ، أو بسبب السباق العصيب الذى يدخله طلبة الثانوية العامة كل سنة للمرور من عنق الزجاجة إلى الجامعة ، وكان عنوان هذه السلسلة هو « لماذا ينتحرون » ؟.

وفى طريقى إلى مكتبه ساءلت نفسى : هل أخطأت فى بعض ما ناقشته خلال هذه التحقيقات ، وهل تجاوزت الموضوعية فيما .. كتبت ؟ ثم دخلت إلى مكتبه متوجسا ، ففاجأنى بابتسامه عريضة ثم قال لى :

لقد قرأت لك تحقيقاتك الثلاثة عن انتحار طلبة الثانوية وأعجبت بها ، وأكثر ما أعجبنى فيها هو أنها كتبت بإحساس طالب فى الثانوية العامة يواجه هذه المحنة ، وبمأساوية تتناسب مع جو الموضوع ، حتى أنها كانت فى بعض

أجزائها تستدر الدموع ، وهذه الطريقة تصلح لهذا النوع من التحقيقات ، لكنها لا تصلح لأنواع أخرى منها قد تحتاج إلى أن يتناولها الكاتب من خارج دائرة مشاعره وأحاسيسه الشخصية ، وتوقف « الأستاذ » ليشعل سيجارة ثم قال : شيء واحد لم يعجبنى فى هذه التحقيقات هو إسرافك فى استخدام النقط بين الكلمات والسطور .

وأنا أفسر ذلك بسبب من ثلاثة أسباب :

إما تأثرك بقصص احسان عبد القدوس الأولى التى كان يصر على أن تتخللها سطور من النقط تتيح للقارئ تخيل أشياء عديدة !.

وإما تأثرك بمقالات فكرى أباظة التى يسرف فى استخدام النقط فيها بداع وبدون داع فى كل سطر وبين كل عدة كلمات .

ثم سكت قليلا فسألته : والسبب الثالث ؟ فضحك ضحكته القصيرة قبل أن يقول أما السبب الثالث فقد يكون تأثرك بأسلوب كتابة الخطابات الغرامية التى تنتشر فيها عادة النقط بين الكلمات !.

لذلك أريدك أن تراعى عدم الإسراف فى استخدام النقط بين الكلمات أثناء الكتابة ، وألا تستخدمها عشوائيا ، بل تضعها حين تريد أن تعبر عن شيء تعنيه وتقصده ، فالنقطتان مثلا حين يضعها الكاتب قرب نهاية الجملة تعنيان أنهما تمهدان لمعنى مفاجئ ومغاير لسياق المعنى السائد فى أول الجملة ، والنقطتان حين يضعها الكاتب فى بداية الجملة يعطيان الإحساس بالتواصل والاستمرار للمعنى فى السطور السابقة ، وهكذا ، ولابد أن تعود نفسك على أن تكبح جماح قلمك الراغب فى أن ينثر النقاط بين الكلمات بدافع العادة أو بدافع الرغبة فى الزخرفة ، فالنقطة أداة من أدوات التعبير ولابد أن تستخدم فى موضعها ، وكذلك علامة التعجب التى يسرف البعض فى استخدامها بغير وعى أيضا تمثل رأيا للكاتب ولابد أن تستخدم بوعى من الكاتب لما يفعله ، وليس عشوائيا كما يفعل البعض .

وواصل الأستاذ كلامه : لقد كان الأستاذ التابعى ـ هكذا كان ينطق اسمه دائمًا ـ يتصل بالجريدة من البيت أحيانًا ليطلب رفع نقطتين وضعها بين ثنايا مقاله ، أو إضافة نقطتين ، أو حذف علامة تعجب أو إضافة علامة تعجب فى موضع آخر ، ويعتنى كثيرًا بموضع النقاط المتناثرة فى مقاله وموضع علامات التعجب ، إحساسًا منه بأهمية هذه الأدوات فى الكتابة والتعبير ، فتذكر ذلك دائمًا عند كتابة تحقيقاتك . وانتهى اللقاء وخرجت سعيدًا من مكتبه ، ومضت سنوات تقترب من العشرين على هذا الحوار القصير ، وبالرغم من ذلك فلم أنسه أبدًا ، بل لعلى لم أمسك القلم مرة لأكتب بغير أن أتذكر هذا الحوار ، فأتنبه لقلمى وأكبح جماحه وارده إلى العقل كلما استجاب لنزواته القديمة ، وأراد أن ينثر النقاط بين الكلمات .

كذلك لم أنس أبدا المعنى الأكبر الذى خرجت به من هذا الحوار ، وهو أن الكتابة ليست لهوا ولا عبثا وإنما عمل جاد مسئول ، كل نقطة فيه لها دور ودلالة ، فإذا كان الكاتب مطالبا بأن يتنبه لأهمية أداة ثانوية كالنقطة وعلامة التعجب ، فكيف يكون اهتمامه بالرأى الذى يعبر عنه والموقف الذى يتخذه والفكر الذى يستلهمه فى كتاباته ، بل كيف يكون حرصه على كرامة هذا القلم نفسه فلا يهينه ، ولا يدنسه . إنها « صناعة » كباقى الصناعات الأخرى تتطلب الاهتمام الجاد بكل أدواتها وإلا انخفض مستوى الانتاج !..

وفولتير كان يقول إن صناعتى هى أن أقول ما أعتقد ، وصناعة كل كاتب هى أن يقول ما يعتقد وما يؤمن به سواء اتفقنا معه أم اختلفنا ، وما ينطبق على الكاتب ينطبق على كل إنسان فى كل مجال من مجالات الحياة ، فالمغزى

واحد .. وهو الجدية واحترام العمل والاهتمام بأدواته سواء أكانت فأسا أم مطرقة أم ماكينة أم قلما ، أو هذا على الأقل هو ما فهمته من هذا الحوار القديم ، وحاولت الالتزام به طوال رحلتى الشاقة فى الصحافة ..

صباح سعيد

كان أحسن الأزمان .. وكان أيضا أسوأ الأزمان ! .

هكذا قال شارلز ديكنز فى بداية « قصة مدينتين » وهو يصف أيام الثورة الفرنسية التى جرت خلالها أحداث روايته الشهيرة وهكذا ينبغى أن يكتب أيضا كل من يريد أن يروى قصة صديقى عبد المجيد ، مع أن قصته لم تحدث فى زمن الثورة الفرنسية وإنما منذ عشرين عاما فقط .

فلقد قامت ثورة يوليو وهو شاب يحاول أن يعبر عن نفسه من خلال انتمائه لجماعة دينية سياسية ثم حدث الصدام الأول بين الثورة والجماعة فاعتقل عبد المجيد لعدة أيام خرج بعدها فوجد باب العمل السياسى مسدودا أمامه ، ولم يكن ذا طبيعة تستريح للعمل السرى فانتهى حلم السياسة من حياته وتفرغ لشئونه الخاصة وتقبل الأمر بواقعية مؤمنا بأن لكل عصر رجاله ، وبأن ما جرى له قد جرى من قبل لغيره وأبرزهم فى محيط علاقاته هو نائب مدينته الصغيرة بالأقاليم « حامد بيه » .

وكان حامد بيه هو نائب الحزب الشعبى القديم عن المدينة فى أكثر من مجلس نيابى ثم قامت الثورة وهوت مطارقها على رجال الأحزاب القديمة .. فتغيرت الدنيا فى سنوات قليلة وفقد حامد بيه نفوذه السياسى لكنه لم يفقد الأمل فى عودة المجد القديم ذات يوم فاحتفظ بعلاقاته الطيبة مع كثيرين من

أبناء المدينة الصغيرة .. ورحب دائما بأن يستقبل فى فيلته الصغيرة بالقاهرة من يأتيه منهم طالبا مساعدته فى حل بعض المشاكل الصغيرة لدى الأجهزة الحكومية .. فإن كان النفوذ القديم قد راح فمازالت له بقايا عن طريق بعض الصلات العائلية برجال الحكومة تستطيع أحيانا أن تسوى بعض المشاكل الصغيرة فيعود أبناء الدائرة من زيارته راضين شاكرين .

ومرت سنوات لم يلتق خلالها صديق عبد المجيد بحامد بك سوى مرات قليلة فى مناسبات معينة حين يرحل راحل من أسرة النائب القديم فيجيء إلى المدينة الصغيرة لتقبل العزاء .. أو حين يرحل راحل من أبناء العائلات الكبيرة بالمدينة فيجيء هو لتقديم واجب العزاء .

وخيم الملل على الحياة العامة والخاصة على السواء لعدة سنوات لكن صداما جديدا يقع بين الثورة والاخوان .. فينشط زوار الفجر لاعتقال أعضاء الجماعة مرة أخرى .. ويتوقع عبد المجيد السجن رغم مرور عشر سنوات على آخر نشاط سياسى له ولا تكذب الأيام ظنونه .. فيأتى الزوار ويصطحبونه إلى مكان مجهول وتفزع أسرته فزعا شديدا ويتجلى العجز والحيرة بأوسع المعانى . ووسط ظلام الحيرة يلمع أمل ضعيف .. حامد بيه رجل الأزمات الذى طالما لجأوا إليه فى الزمن الماضى ويتحمسون للسفر إليه فى القاهرة .. فيستقبلهم فى البهو القديم الذى كان قبلة أصحاب الحاجات فى الأيام السعيدة ويقول قائلهم أمامه : حامد بك .. أنت رجلنا دائما فى الملمات وعبد المجيد من أبناء دائرتك .. وهو كما تعرف لم يرتكب جرما ولم يشارك فى مؤامرة .. والأمل كل الأمل فى أن تستشفع له لدى الحكومة .

ويسمع حامد بك الرجاء فى وقار ويفكر ماذا يستطيع أن يصنع فى هذه « الوكسة » وهو يعرف أن الدنيا لم تعد هى الدنيا .. وأنه فى هذه المسائل

الشائكة بالذات لا يسمع أحد لأحد خاصة إذا كان من رجال العهد القديم .. ثم يستأذن منهم وينتحى جانبا من الصالون مع التليفون ويدير أرقاما .. ويتحدث بصوت غير مسموع طويلا .. ثم يضع السماعة ويعود إليهم منفرج الأسارير ليبلغهم أنه حادث « المسئولين » وبحثوا فى الأوراق وهو معهم على التليفون فلم يجدوا شيئا يدين قريبهم وأكدوا له أنه قد اعتقل من باب الاحتياط فقط فى بداية الحملة وسوف يفرج عنه بعد أن تحدد موقفه فعلا فى أقرب وقت .

وانصرف أفراد الأسرة شاكرين وفى أول خطاب سمح لهم بإرساله إلى قريبهم بالسجن زفوا إليه البشرى وكالغريق الذى يتعلق بالقشة تلقى الرسالة فى سجنه بفرحة كبيرة وتجدد أمله فى العودة للحياة من جديد . لكن الأيام مضت بطيئة ثقيلة بلا أدنى أمل بقرب زوال الغمة ، ومن خارج الأسوار ترامت إليه أنباء عجيبة حركت الملل الراكد فى حياة السجن فلقد توفى زعيم الحزب القديم بعد أعوام طويلة من اعتزال الحياة السياسية فإذا برجال الحزب يتوافدون من كل صوب على القاهرة ليشيعوا جثمانه فى جنازة شعبية كبيرة ويرددون هتافات الزمن القديم فتفزع الأجهزة وتتصور وجود « مؤامرة » وراء هذا الحدث فتنطلق لاعتقال رجال الحزب وتستقبل السجون وفودا جديدة منهم . ثم تهدأ الأحوال بعد ذلك .

ويتراجع الاهتمام الذى أثاره الحدث الجديد وتعود الحياة فى السجن إلى كآبتها المعتادة .. ويقترب الشتاء ببرده القارس .

ويصحو عبد المجيد ذات صباح قبل موعد طابور الحمام بساعة فتمضى الدقائق فى وحدته كأنها دهور .. ثم يقترب الحارس أخيرا ويسمع صوت المفتاح يدور فى القفل .. فينهض متثاقلا ويحمل الفوطة على ذراعه ويخرج إلى

الردهة ثم إلى الفناء الصغير الذى يقع الحمام فى نهايته وقبل أن يصل إليه يرى نزيلا يغادره بالبيجامة والشبشب والفوطة حول رقبته .. فيشعر عبد المجيد بأنه يعرفه ويبذل جهدا كبيرا ليتذكر أين رآه من قبل ثم يشتعل اهتمامه فجأة ويهتف باحترام شديد : حامد بيه ! صباح سعيد ياحامد بيه .. فيتوقف الرجل وينظر إليه متسائلا ثم تنجده ذاكرته القوية فيصافحه ويرد تحيته بتواضع العظماء ويتبادلان الحديث للحظات تحت أنظار الحارسين المتأففة ، ويمد حامد بيه يده ليصافح عبد المجيد مودعا ويهم بالتحرك ثم يتذكر شيئا هاما فيشد ظهره إلى الوراء كما اعتاد أن يفعل حين يتحدث فى جلائل الأمور ويقول له فجأة : اطمئن ياعبد المجيد .. لقد كلمت المسئولين بشأنك .. ووعدونى بالإفراج عنك خلال وقت قصير .. فلا تقلق . فانحنى الآخر على يده يشد عليها بعرفان شديد .. ثم كرر عبارات الشكر وهو يرفع يده اليمنى إلى جبهته محييا وشاكرا .. وانصرف حامد بك مع حارسه بخطواته الوقورة وعبد المجيد فى مكانه ينظر إليه وهو يطرقع بالشبشب الجلدى على بلاط الفناء الكابى اللون .

ثم تنبه فجأة إلى غرابة الموقف فابتسم .. وكادت تفلت منه ضحكة كتمها بجهد شديد ثم ألحت عليه ضحكة أخرى فشد ملامح وجهه ليمنعها من الانطلاق فاهتز جسمه بدغدغاتها .. ونفرت عروقه وتلاحقت أنفاسه وهو يرقب حامد بك يتوارى فى الممر القريب فاطمأن إلى أنه لن يسمعه .. وأرخى لنفسه الزمام .. فانطلق ضحك الدنيا كله منه .. وأحس ببهجة غريبة لم يحس بها منذ زمن طويل وتلاحقت ضحكاته قوية صافية حتى أفرغ كل مخزونه منه واستراح .

لكنه أبدا .. أبدا لم يفقد احترامه القديم لحامد بك ! .

مستقبلى ورائى

هل أنت خائف من المستقبل؟... بعض الشىء وأنا كذلك لكنى أفكر ! .

ومادمت أفكر فلابد أن أسلم بأن المستقبل غيب ... والغيب لايعلمه إلا الله وليس من الحكمة أن أفسد حاضرى لحساب المستقبل ... أو لحساب الماضى فلا بكائى على الماضى سوف يغير من واقعى ولا خوفى من المستقبل سوف يغيره أو يخط فيه خطا جديدا .

والخوف من المستقبل داء قديم عرفته البشرية منذ زمان طويل ... فالإنسان مهموم دائما بمستقبله كأنما سيعيش أبدا ... وهو فى سن الصبا مهموم بمرحلة الشباب وفى سن الشباب مهموم بمرحلة الرجولة وفى سن الرجولة يخاف من الشيخوخة وفى سن الشيخوخة يخاف من الموت مع أنه «حاضر» دائما فى كل مراحل العمر ويمكن أن يهبط من السماء فى أية لحظة .

والاحساس المبالغ فيه بالمستقبل احساس مَرَضى معروف يفقد معه الإنسان سلامة النفسى ويحس دائما بالقلق والتوجس . والفقيه الدستورى العظيم دكتور عبد الرازق السنهورى كتب مرة يقول : ماتعبت لشىء أكثر من تعبى عندما أفكر فى المستقبل ! .

والملك الحسن ملك المغرب سئل مرة فى بداية توليه الملك فى بلاده وهو

فى سن الشباب عن إحساسه بالمستقبل فقال كلمته الشهيرة التى أصبحت مثلا : « مستقبلى ورائى » يقصد أن مستقبله قد تحدد بماضيه وبالتالى فهو وراءه وليس أمامه ! .

وبعض الشباب فى بلادنا يرون معه أن مستقبلهم وراءهم وليس أمامهم ... لأن صعوبات الحاضر قد قللت فرصهم لتحقيق أحلامهم فى المستقبل ... فالماضى قد جنى على الحاضر... والحاضر سوف يجنى على المستقبل ... وسوف يغتال الأحلام ويقتل الطموحات . وهذا الاحساس قد يكون له مايبرره فى بعض الوجوه ... لكنه فى إجماله ليس صحيحا ... لأن إرادة الإنسان أقوى دائما من كل الصعوبات ... ولأن كل إنسان يستطيع أن يسعى إلى تحقيق أهدافه ... وأن يبذل الجهد والعرق والدموع من أجلها ... فإن نالها رضى عن نفسه وأن قصرت الإمكانات عن بلوغها فيكفيه شرف المحاولة لكى يرضى أيضا لأنه لم يقصر فى حق نفسه ولأنه قد « حاول » .... وسوف يحاول مرة أخرى مؤمنا بأن على المرء أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح وبأن :

ماكل مايتمنى المرء يدركه تأتى الرياح بما لاتشتهى السفن

وما أكثر ما أتت به الرياح مما لاتشتهى السفن ... ومع ذلك فقد حاولت السفن وغالبت وصمدت حتى اجتازت العواصف واستقرت فى مسارها فوق الحياة الهادئة الآمنة .

وفى كل الأحوال ، علينا أن نرضى دائما بما حققناه ، وبما اخترناه لأنفسنا ، واختارته لنا الأقدار فالتوفيق فى النهاية من عند الله ... وللحظ دور غير منكور فى حياة البشر لكنه ليس الدور الوحيد أو الدور الأساسى . والملكة الكسندرا إحدى ملكات أوروبا فى العصور الوسطى كانت تدعو لابنها قائلة :

« رب اجعل له حظا يستخدم به أصحاب العقول ولاتجعل له عقلا يخدم به أصحاب الحظوظ ! » ورغم اعترافى بدور الحظ فى حياة البشر فإنى لا أتفق تماما مع مضمون هذا الدعاء العجيب لأن الحظ وحده لايكفى ، ولأنه إذا أفاد فى بعض الحالات فلن يفيد فى كل اختيارات الحياة ... فلابد دائما من العقل حتى ولو خدمنا به أصحاب الحظوظ فى بعض الأحيان ولابد من الاستعداد الكافى لمواجهة معركة الحياة ولابد من الإرادة والكفاح والصبر لأن كل قصص النجاح التى تستهوينا هى غالبا قصص هذا المزيج العجيب من العقل « أى العلم » والحظ والكفاح والإرادة والصبر والأمل والقدرة دائما على تكرار المحاولة . وهو مزيج مر الطعم كمزيج الحديد والزرنيخ الذى تقدمه المستشفيات المجانية لمرضاها لكن مفعوله هنا أكيد .

وقبل ميلاد المسيح عليه السلام بخمسمائة سنة قال الاغريق : إن أفضل الأشياء هى أصعبها منالا ! .

ومازالت هذه الحكمة صحيحة حتى الآن .... فما يتحقق بغير تجرع هذا المزيج المر لانقدره غالبا حق قدره ولا نستمتع به ... وغالبا مانفقده بنفس السهولة التى جاءنا بها لأن ما يأتى سهلا يضيع سهلا كما يقول المثل الإنجليزى .. أما ما بذلنا من أجله العرق والدموع ... فإننا نتشبث به ونحافظ عليه ونبنى فوقه لأننا نعرف جيدا كم شقينا لكى نناله ... وكم سهرنا من أجله الليالى .

وفى كل مراحل العمر .. على الإنسان دائما أن يحاول تحويل خسائره الشخصية إلى مكاسب فيحاول دائما أن يبدأ من حيث فشل مؤمنا بأن قطرة الماء تثقب الصخر وأن « المستقبل » الذى يسعى إليه هو مشروع سنوات طويلة وليس مشروع أسابيع أو شهور ، وأن ما نعانيه من صعوبات أو آلام لن تستمر

إلى الأبد ، وحتى لو استمرت فلقد حولها غيرنا من خسائر إلى مكاسب فلماذا لانحاول مثلهم ؟ .

إن بعض المؤرخين يعتقدون أن الصعاب الشخصية التي واجهت بعض العباقرة والمشاهير هي السبب الأساسي في نبوغهم وفي شحذ إرادتهم لتحقيق ما حققوه ويرون أنه لو لم يولد الفيلسوف الفرنسي ديكارت مريضا عليلا مهددا بالإصابة بمرض السل الذى ماتت به أمه لما سمح له مدرسوه بالبقاء فترات طويلة فى الفراش والذهاب متأخرا إلى الفصل ولما قضى ساعاته فى الفراش متأملا ... ومفكرا .... وقارئا ... مما أهَّله فيما بعد لوضع فلسفته التى يعتبرونه بها أبا الفلسفة الحديثة .

ويرى بعض النقاد أنه من المحتمل جدا أنه لو لم يكن الشاعر الإنجليزى ميلتون أعمى لما كتب قصائده ... وأنه لو لم يكن الموسيقار العبقرى بيتهوفن أصم لما ألف روائعه الموسيقية وأنه لو لم يكن الكاتبان الروسيان العظيمان تولستوى ودستوفسكى والموسيقار تشايكوفسكى معذبين فى حياتهم الخاصة لما ألفوا روائعهم الخالدة .... أما العالم الإنجليزى تشارلس داروين صاحب نظرية التطور ، فقد كتب هو نفسه يقول : لو لم أكن مريضا طريح الفراش لما أنجزت ما أنجزت من أعمال ! » .

ونفس الشيء يمكن أن تقوله عن طه حسين والعقاد وغيرهما من العمالقة الذين تحدوا ظروفهم الشخصية أو الاجتماعية .... وشربوا هذا المزيج العجيب الذى ينبغى أن نوطن أنفسنا على أن نتجرعه حتى الثمالة ثم يحق لنا بعد ذلك أن نتساءل بقلب يؤمن بالله ... ويطمع فى رحمته ... ويثق فى عدالته ... ويخفق دائما بالأمل :

..... ترى .... ماذا تخبئ لنا أيها الغد ؟ ! .

حرب النظرات

لماذا أتذكر هذه القصة القديمة الآن ؟ .

كنا فى منتصف الستينيات مرحلة استشعار الدور التاريخى وأحلام العظمة ثم تحدث الرئيس الراحل عبد الناصر فى إحدى خطبه عن مشاكل الإدارة فى بلادنا فتعجب من أننا قد نجحنا فى إدارة قناة السويس بعد التأميم وفشلنا فى إدارة مستشفى كبير كمستشفى قصر العينى ! فبدأت فى إعداد سلسلة تحقيقات صحفية للأهرام عن مشاكل مستشفى قصر العينى ، وكانت الخطوة الأولى فى التحقيق هى مقابلة وكيل جامعة القاهرة الذى يتبعه المستشفى وكان أستاذا جامعيا معروفا ، فاستقبلنى الرجل بترحيب شديد بالرغم من أن جو التحقيق يوحى من البداية بأنه سيكون هجوميا وسيركز على سوء الخدمة ومشاكل الإدارة وبدأت المناقشة معه فراح يناقشنى بهدوء وموضوعية ويشاركنى الرأى فى سوء حال المستشفى ويطرح آراءه فى علاج مساوئه ثم يودعنى متمنيا لى التوفيق فى مهمتى فأشكره وانصرف . وجاءت الخطوة الثانية وكانت مقابلة مدير عام المستشفيات وكان للأسف جنرالا سابقاً من أهل الثقة الذين وضعوا فى المناصب الكبيرة للثقة فى أشخاصهم بغض النظر عن كفاءتهم فجرُّوا علينا الكثير من المصائب وذهبت لمقابلته فأحسست منذ اللحظة الأولى التى دخلت فيها مكتب سكرتيره أنى قد انتقلت من جو إلى جو آخر .. فسكرتيره متوتر ومشدود وخائف بلا سبب مفهوم والموظفون يدخلون مضطربين إلى مكتب

المدير ثم يخرجون بعد دقائق ووجوههم محمرَّة ويتصببون عرقاً . ثم دعانى السكرتير للدخول فدخلت غرفة مكتب واسعة يجلس فى نهايتها رجل طويل ممصوص يتصنع الوقار والهيبة فاستقبلنى بتحفظ مقصود وقال لى ببرود رغم معرفته بهدف الزيارة : أفندم ؟ .

فابتلعت تحفظه وجفاءه وقلت له فى كلمات مختصرة إنى أعد تحقيقاً عن المستشفى وأحتاج إلى بعض البيانات والأرقام . فكان جوابه نظرة باردة وقحة استمرت حوالى دقيقة ترجمتها الحرفية هكذا : كيف تجرؤ على التفكير فى كتابة تحقيق ينتقد المستشفيات التى أديرها ؟ ألم تر كيف يرتجف الموظفون الكبار أمامى ! ألا تعلم أننى من أهل الثقة .. صحيح أن الرئيس ولسوء حظى قد أشار إلى مشاكل قصر العينى .. لكنه الرئيس ومن حقه أن يقول ما يشاء وعلينا السمع والطاعة ونحن « زيتنا فى دقيقنا » .. فما شأنك أنت أيها المدنى الغريب ؟ .

بعد هذا الحوار الصامت نطق أخيرا وقال : تفضل فسألته أول سؤال محاذراً أن تبدو من ورائه أية نية هجومية . فكان الجواب مرة أخرى : نظرة أخرى أكثر وقاحة ترجمتها الحرفية هكذا : آه ياأولاد الأفاعى .. والله الذى لا إله سواه .. لولا احتمال ضعيف أن يكون هذا التحقيق مطلوباً باتفاق ضمنى بين سيادة الرئيس وبين خله الوفى الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير « الأهرام » فى ذلك الوقت لكان جوابى عليك هو « شلوت » يطيح بك خارج المكتب ، لكن لابد مما ليس منه بد ولابد أن أخضع لحكم الزمن وأكون « ديمقراطيا » معك وأجيب عن أسئلتك .

وبعد هذه الجملة الصامتة البليغة انحنى على أوراقه وردَّد بعض الأرقام باقتضاب ، ثم عاد يركز نظراته على .

فسألته سؤالا آخر فعاد يسدد إلى سهامه النارية لمدة دقيقة كاملة بما معناه هذه المرة : يابن ..... ! ألم تخف منى بعد ! لو كان الأمر بيدى لسلختك حيًّا .. لكن ما باليد حيلة .. إذن هذا هو الجواب ثم يقرأ بعض البيانات . ومضى الحديث هكذا : أسئلة بالكلمات وأجوبة بالنظرات الكارهة الصاعقة حتى أحس أنى قد « زودتها » بعض الشىء فأضطر إلى تغيير الأسلوب واستخدام الطريقة ١١٤ وهى طريقة التخويف عن طريق النصح .. فتخلص من نظراته الباردة وطلب لى فنجاناً من القهوة بعد نصف ساعة من دخولى مكتبه ثم حاول أن يكتسب مظهرا أبوياً مفتعلا وقال لى : شوف يافلان بيه « يقصد شخصى الضعيف » أنت شاب فى مقتبل حياتك الصحفية وأحب أن أنصحك لمصلحتك أن الرئيس لايحب أى هجوم على القطاع العام فحاول دائما فى موضوعاتك أن تبتعد عن الهجوم على القطاع العام والهيئات والمستشفيات العامة ، لأن الرئيس يستشعر دائما وراءها محاولات للتخريب وإثارة البلبلة ! .

ولأنى وجيلى من الصحفيين الذين بدأوا العمل فى هذه الفترة كنا قد تمرسنا على التعامل طويلاً مع هذا الأسلوب المطور للتخويف فقد قلت له بثبات : ياسيدى لا تخريب فى الأمر ولا بلبلة .. إنها مجرد مناقشة لمشاكل مستشفى كبير يتعامل معه قطاع كبير من الشعب ومن أجل الصالح العام والرئيس نفسه هو الذى أثار المناقشة فأين التخريب إذن ؟ .

فرجع المسئول الخطير فى مقعده إلى الوراء وابتسم لأول مرة وقال لى بلهجة العالمين ببواطن الأمور : هذا هو ما أريد أن انبهك إليه .. إننا كمسئولين قد نتحدث عن عيوبنا من باب النقد الذاتى لكنك تعرض نفسك للخطر أيضا إذا توسعت فى مناقشة هذه العيوب نفسها لأنك بذلك تشارك فى

حملة التشهير التى يقودها خصومنا فى الخارج .. والشاب الذكى هو الذى يتنبه إلى هذه المصيدة فلا يقع فيها فهل أنت شاب ذكى لا يأخذ بظواهر الأمور كما أتوسم فيك ؟ ! .

لكنى تجاهلت نصيحته الخبيثة وواصلت طرح أسئلتى عليه فعاد يسدد إلى سهام نظراته النارية مرة أخرى .. وطالت فتراتها بين كل سؤال وآخر حتى بلغت فى إحدى المرات ثلاث دقائق كاملة أمضيناها صامتين كأن على رءوسنا الطير وهو ينظر إلى مركزا عينيه على كأنه يحاول أن ينومنى مغناطيسيا أو كأنه ينتظر تدخل السماء لكى تخلصه منى بسكتة قلبية مفاجئة تريحه من هذا التحقيق الذى يؤرقه واكتشفت بعد قليل أنه قد جرَّنى إلى حرب النظرات هذه بغير وعى منى فأصبحت أبادله النظرات الصاعقة بين كل سؤال وآخر وانتهت المقابلة وكلانا يمقت الآخر مقتًا شديدًا . ويتمنى له أسوأ الأمنيات ولولا العرف والتقاليد والقيود الاجتماعية لنحَّينا أدب الحوار جانبًا وتبادلنا اللكمات والضرب بالكراسى الطائرة . وتنفست الصعداء حين وجدت نفسى فى الهواء الطلق بعيدًا عن هذا الجو .

كان حديثاً صحفياً غريباً أجريته بالقلم واللسان والنظرات النارية لكن لماذا أتذكره الآن بعد كل هذه السنوات .. ولماذا أروى لك قصته ؟ هل لأحدثك عن ضرورة أن نضع الرجل الكفء المناسب فى المكان المناسب دائما ، أم عن أهمية أن يسود الحوار الحر الديمقراطى كل مواقع حياتنا بعيداً عن التسلط والتخويف والارهاب حتى ولو بالنظرات الوقحة ؟ أم لأقول لك إن الأمم لا تتقدم إلا حين تسودها حرية الرأى وحرية الفكر وحرية المناقشة بلا تطرف ولا إرهاب ؟ .

لا أعرف على وجه التحديد لكنى أعرف فقط أنى منذ ذلك الحين وأنا

أكره أى مسئول يطل على الناس بوجه متجهم ونظرات نارية صاعقة ويحاول أن يفرض لنفسه هيبة صاعقة لا وجود لها ويعتبر مسئوليته شيئا مقدساً غير قابل للمناقشة والحساب والانتقاد ، وأعتقد أنك معى فى ذلك ...

.. إذن .. لماذا تنظر إلى هكذا ؟

ارفعوا القبعات

لى أصدقاء أحبهم ويحبوننى وأحدثهم ويحدثوننى .. ولكن لايراهم أحد غيرى ! .

وقبل أن تسىء الظن بعقلى أبادر بأن أقول لك : إن هؤلاء الأصدقاء يعيشون معى فى مخيلتى .. لأنهم بعض شخصيات الأعمال الأدبية والتاريخية التى قرأتها فأحببتهم من خلالها وسعدت معهم فى لحظات السعادة ورثيت لهم فى لحظات الشقاء ، وحاولت أن أتعلم دروس تجاربهم وأتجنب عثرات طريقهم .

لكن من بين أصدقائى هؤلاء شخصية عجيبة حقا كثيرا ما تأملت أحوالها وأشفقت على نفسى فى بعض الفترات من مصيرها . وهى شخصية الموظف البائس « جران » فى رواية الطاعون للأديب الفرنسى البير كامى الذى فاز بجائزة نوبل وانتهت حياته بحادث سيارة . فلقد كان صديق فى الخيال (جران) يعيش وحيدا فى شقته ويمضى الليل ساهرا منكبا على عمل مجهول وعندما اقترب منه الطبيب « ريو » وأصبح من أصدقائه باح له بسره العظيم ! إنه يكتب أول عمل أدبى له ويحلم بأن يكون أديبا مشهورا ويمضى الليالى الطويلة ساهرا يكتب ويشطب ويريد أن يبلغ بعمله الأول قمة الكمال حتى إذا ما انتهى منه وقرأه الناشر .. نهض من وراء مكتبه ورفع قبعته وقال للعاملين

معه : ارفعوا القبعات تحية لهذا العمل الكبير ! وبسبب هذا الحرص البالغ على أن تكون البداية مبهرة يمضى الأيام يفكر فى كل حرف قبل كتابته .. ويحكى للطبيب شارحا معاناته : « قد يكون من السهل المفاضلة بين « لكن » و« و » ، لكن من الصعب أن تفاضل بين « و » و « ثم » أما ما هو أصعب من ذلك فهو أن تعرف هل من الأفضل استعمال « و » أساسا أم لا ! وهو يكتب ويبدل ويملأ الصفحات الطويلة ثم ينحيها جانبا ويكتب غيرها وتمر السنوات بغير أن يكتب فى عمله الكبير سوى أول سطر منه :

« فى صباح يوم جميل من أيام شهر مايو ، كانت هناك فارسة جميلة تمتطى فرسا حمراء وتجوب بها غابة بولونيا المزهرة » . ولا تسلم الجملة نفسها من التغيير والتبديل مع شرح واف لسبب كل تعديل .. وتنتهى رواية الطاعون ، وصديقى البائس لم يكتب سواها ولم يبدأ خطوته الأولى فى طريق تحقيق الأهداف ! ..

وصديقى جران شخصية ألتقى بها كثيرا فى الحياة وأتذكرها فى مناسبات عديدة حين أتأمل أحوال كثيرين يتوقفون طويلا عند نقطة البداية وتتملكهم الرغبة فى أن يحققوا لأنفسهم ما يريدونه لها من نجاح .. ويتشككون دائما : هل هذه هى البداية الصحيحة أم أن عليهم أن ينتظروا فرصة أفضل وأكثر توفيقا .

وأنا شخصيا من المؤمنين بأن الحركة أفضل من الجمود .. وأن الحركة حياة والسكون موت ، وبأن كل الطرق وكل البدايات يمكن أن تؤدى إلى الأهداف مهما كان الطريق طويلا والبداية متواضعة ، لأن أهداف الحياة كالميادين الدائرية فى المدن تصب فيها شوارع عديدة ويستطيع من بدأ طريقه من أى شارع أن يصل إلى الميدان فى النهاية بكفاحه واصراره وثقته بربه وبنفسه.

والمسافر فى الغابة إذا ضل الطريق فإن عليه كما يقول الفيلسوف الفرنسى ديكارت أن يواصل السير فى خط مستقيم لا ينحرف يمينا ولا يسارا فإذا لم يبلغ المكان الذى ينشده فإنه سوف يصل بالضرورة إلى نقطة أفضل من التى كان فيها حين ضل الطريق وتملكته الحيرة ! .

وفى قصص حياة أعلام الفكر والأدب والحياة استهوتنى دائما نقطة البداية التى انطلقوا منها إلى النجاح واكتشفت أنها كانت غالبا نقطة شديدة التواضع وفى اتجاه مخالف غالبا للمرفأ الذى رسيت فيه سفينة حياتهم وحققوا فيه نجاحهم وطموحهم . فلقد بدأ الكاتب الإنجليزى هـ . ج ويلز مثلا حياته صبيا فى متجر متواضع يصحو فى الخامسة صباحا فيكنسه وينظمه ويعمل فيه ١٤ ساعة كل يوم حتى كتب إلى ناظر مدرسته يشكو إليه حاله فعينه مدرسا بها فكان ذلك بداية الخير له وللأدب الإنجليزى فكتب أكثر من سبعين كتابا وحقق ما لم يحلم به من النجاح الأدبى والمادى .. وبدأ أشهر مغنى أوبرا عرفه التاريخ «كاروزو» حياته عاملا صغيرا فى مصنع بمدينة نابولى الإيطالية ، وبدأ أديب الإنجليزية الشهير تشارلز ديكنز حياته صبيا مشردا يلصق الورق الذى يحمل العلامة التجارية على زجاجات البوية فى مصنع صغير للطلاء ! وكثيرون غيرهم بدأوا الطريق من نقطة بداية شديدة التواضع .. وفى غير ميدانهم ثم حولوا مسارهم خلال رحلة الحياة إلى أهدافهم الصحيحة .. وهكذا ينبغى أن نفعل نحن أيضا أن نبدأ أية بداية .. وأن نتمسك بأهدافنا ثم نلهث وراءها إلى أن تتحقق ولابد أن تتحقق ذات يوم ، لكن مشكلة البعض هى أنهم يريدون أن يعكسوا الآية وأن يبدأوا حياتهم بما انتهى إليه الآخرون بعد رحلة العمر وكفاح السنوات ، ولقد توقفت طويلا أمام عبارة أجاب بها ملك الصناعة الأمريكية هنرى فورد حين سئل عن سر

احتفاظه بحيويته ونشاطه فقال : إننى لا أقف حيث يمكننى الجلوس ولا أجلس حيث يمكننى الاستلقاء ! وتعجبت كيف صنع نجاحه إذن ثم زالت دهشتى حين تذكرت انه سئل هذا السؤال وهو فى الثمانين من عمره وانه أمضى قبلها ٥٠ عاما يعمل ١٦ ساعة كل يوم حتى صنع نجاحه .. فالراحة حق فعلا .. ولكن لمن تعب أولا وليس لمن يريد أن يبدأ حياته بها كما يفعل البعض . والاستمتاع بثمرات الكفاح حق أيضا .. ولكن لمن لهث وراء أهدافه ونام فوق حصانه كما كان يفعل نابليون بونابرت فى المعارك ، والحياة فى النهاية لا ترفع القبعات إلا للمكافحين الذى يقبلون المخاطرة ويجربون أكثر من بداية .. حتى تستقر أقدامهم على الطريق ويصنعون نجاحهم بالعرق والدموع والكفاح .

أما من يبددون أيامهم فى التردد .. والمفاضلة بين حرف « و » و « ثم » .. وفى الاصرار على أن تكون البداية مبهرة ومرموقة .. وإلا فلا .. فلا يجنون سوى الحسرة والعجز .. وتنتهى رواية العمر عندهم بغير أن يكتبوا منها .. حتى السطر الأول ! .

عصير حياتهم

قد تعجب أحيانا بتصرف إنسان فى موقف من المواقف العصيبة فتسأله : كيف اهتديت إلى هذا التصرف الحكيم ؟ فيجيبك قائلاً : من خبرة الحياة ! .

وربما تسأل نفسك : ما هى خبرة الحياة هذه ، وفى أى الجامعات والمعاهد نستطيع أن نتعلمها ؟ فتعرف بالتجربة أنها لا تدرس سوى فى جامعة واحدة اسمها جامعة الحياة وأنها الجامعة الوحيدة فى العالم التى لا يستطيع أحد أن يزعم أنه أنهى دراساته العليا فيها لأن من يتخرج فيها لا يغادرها إلا إلى قبره . أما من لازال على قيد الحياة فسوف يبقى تلميذا فيها إلى الأبد يضيف كل يوم إلى تجاربه جديدا ويتعلم الحكمة فى أحيان كثيرة بعد فوات الأوان . فتسمع دائماً من يقول لك : لو رجعت الأيام ما فعلت كذا وكذا . وتقرأ لبطل رواية السمان والخريف لنجيب محفوظ مثلا عبارة يقول فيها لزوجته : إن الإنسان يحتاج لأن يعيش حياته أكثر من مرة لكى يحسن التصرف فيها ربما فى المرة الثالثة أو الرابعة منها ! .

أو تقرأ أيضا لألبير كامى كلمته التى يقول فيها : يكفينى أن أتعلم بصبر علم الحياة الذى يفوق فى صعوبته ومرارته كل العلوم والفنون ، فتعرف من كل ذلك كم هى ثمينة تجارب الحياة .. وكم هو حالم من يدعى أنه قد فهم كل أسرارها وجمع كل خبراتها .

ولأنى تلميذ صغير فى جامعة الحياة فقد حاولت دائما أن أتعلم من تجاربى وتجارب الآخرين .. واهتممت بوجه خاص بأن أقرأ كتب التراجم التى يحكى فيها أعلام الفكر والأدب والتاريخ قصص حياتهم وخلاصة تجاربهم ووجدت دائما فيها الإجابة عن كثير من الأسئلة التى أثارت حيرتى .

ومن بين هذه الكتب كتاب صغير صاحبنى لأكثر من عشرين سنة قرأته خلالها عدة مرات وما زلت أقرأه من حين إلى آخر سجّل فيه عدد كبير من أعلام الفكر فى مصر عصارة تجربتهم وصدر باسم « علمتنى الحياة » وهو كتاب يستحق أن يقرأ وحبذا لو أعادت دار الهلال نشره من جديد . فمن هذا الكتاب تعلمت أو حاولت أن أتعلم أهم ما علمته الحياة لهؤلاء الأعلام الكبار كما سجلوه بأقلامهم .

فقد علَّمت الحياة مثلا الأستاذ عباس محمود العقاد ألا يستغرب لأى شىء يقع من الناس ضده ، لأنه كما قال قد عرف الناس منذ زمن طويل وعرف أن فيهم نقائص وغرائب وأنانية ، فإذا أصابه شىء من ذلك قال لنفسه : ولماذا الاستغراب ؟ .. ولماذا الألم ؟ .. ولماذا الشكوى وقد علمت أن فى الناس كل ذلك منذ زمن بعيد ؟ ! .

وعلَّمت الحياة الأستاذ توفيق الحكيم أن الحياة هدف وإرادة وأن على الإنسان أن يؤمن بأهدافه التى حدَّدها لنفسه وأن يركز إرادته فى السير فى طريقها ، وليس يهم بعد ذلك إدراك النجاح لأن الأهم هو تحقيق الذات باستخراج ملكاتها وتأهيلها للمضى فى طريق الأهداف .. وفى هذا وحده تحقيق للذات واعلاء لها .

وعلَّمت الحياة الفقيه الدستورى الدكتور عبد الرازق السنهورى أن الحياة تصبح تافهة إذا خلت من مثل أعلى وأنه لابد للإنسان دائماً من مثل أعلى

يسير على هديه ويحميه من الانحراف والضياع ، كما علَّمته أيضا أن حظوظ الناس غالبا متقاربة مهما بدا للآخرين من تفاوتها ، فلكل إنسان من حظه ما يسعده ولكل إنسان من حظه ما يشقيه . وهكذا تتساوى أقدار الناس غالباً من السعادة .

وعلَّمت الحياة الدكتور أحمد أمين أن درهم حكمة قد يكون أفضل من قنطار علم ، لأن العلم والثقافة وحدهما لا يؤهلان الإنسان للحياة بسلام مع البشر ، وإنما يحتاج الإنسان أيضا إلى الحكمة لكى تظل سفينته طافية فوق سطح الماء لهذا قد ينجح من هو أقل علما فى حياته الزوجية والاجتماعية والعملية لأنه أكثر حكمة من غيره وإن كان أقل علما لأنه : « ... ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا » صدق الله العظيم .

وعلَّمت الحياة المؤرخ الدكتور شفيق غربال أن الحياة جديرة بأن نحياها مهما لقينا فيها من عنت أو صعوبات ، وأن أفضل خطة للعيش فى أمان هى التزام « الوسط الذهبى » الذى تحدَّث عنه فلاسفة اليونان .. لأن خير الأمور الوسط ، فلا إفراط ولا تفريط فى أى شىء ، وإنما اعتدال فى كل الشئون .

وعلَّمت الحياة الدكتور محمد حسين هيكل أن رضا الضمير هو مفتاح السعادة وأن الإنسان لا يمكن أن يستشعر السعادة الحقيقية وهو مؤرق الضمير لفعل أو جرم ارتكبه .

وعلَّمت الحياة الدكتور زكى نجيب محمود أن حدَّة العاطفة والانفعال معناها العجز فى التفكير ، لأنه بقدر ما تتضح الحقيقة فى أى شأن من الشئون بقدر ما تبرد الانفعالات تجاهها ، وهكذا فإن الشاب يستطيع أن يكون شيخاً مجرِّبا إذا تحكَّم فى انفعالاته وغلَّب حكم العقل على حكم العاطفة .

وعلَّمت الحياة الأديب طاهر الطناحى أن الدنيا كثيرة الفرص وأن الإرادة

تحقق المستحيل وأن الاعتماد على النفس ضرورة للنجاح وأن مصاحبة الكبار ومحاكاة تصرفاتهم الرشيدة والتشبه بأخلاقهم وقيمهم تعطى الإنسان سلاحا جديدا فى مواجهة الصعاب .

وعلَّمت الحياة الأديب والعالم الدكتور أحمد زكى أن تربية الإنسان الأولى هى الأصل فى تكوين شخصيته وفى نجاحه فى الحياة وأنه من الأفضل أن يقوم الأبوان بتعليم أبنائهما دوائر واسعة من المعارف والهوايات واللغات لكى تتسع أمامهم مجالات الاختيار والتفوق حين يشبون ، كما علمته أيضًا أن الإنسان يحتاج إلى الصداقة وإلى الأصدقاء لأنه لا يستطيع أن يحيا وحيدًا .. لا يحب سوى نفسه ولا يرى غيرها !.

... هذا هو بعض ما علَّمته الحياة لهؤلاء المفكرين والأعلام .. فماذا علَّمتك أنت ؟.

للمـؤلـف :	الطبعة الأولى	الطبعة الثانية
١ ــ أصدقاء على الورق	١٩٨٦ نفد	
٢ ــ يوميات طالب بعثة	١٩٨٧	
٣ ــ هتاف المعذبين	١٩٨٨	
٤ ــ صديق لا تأكل نفسك	١٩٨٩	١٩٩٠
٥ ــ نهر الحياة	١٩٩٠	

تحت الطبع :

٦ ــ صديق ما اعظمك	
٧ ــ العصافير الخرساء	
٨ ــ دموع صامتة	
٩ ــ اصدقاء على الورق	الطبعة الثانية

الفهـرس

رقم الإيداع ٩٣/٧٨٧٥
I.S.B.N 977 - 09 - 0164 - 4

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



صديقى لاتأكل نفسك

أنت حائر دائما .. هل تقترب من الآخرين أم تبتعد عنهم ؟! هل تثق بهم أم تصدق ظنونك فيهم .. ؟ هل تبوح لهم بأسرارك أم تكتمها عنهم .. هل تعيش فى قلب الدائرة معهم .. أم تنعزل على حافتها كما يعيش الغجر فى أطراف المدن والقرى .. منعزلين عنها ومنفردين بأنفسهم ؟

أنا معك فى كل هذه التساؤلات أبحث عن إجابات مريحة لها .. وحائر معها مثلك ..

